بداية التاريخ

قصة الهجرة النبوية ودلالاتها

عبد الوهاب الطريري
أبا الخيل

مبرة الآل والأصحاب

بداية التاريخ

قصة الهجرة النبوية ودلالاتها

مكتبة الكويت الوطنية
National Library of Kuwait

عنوان الكتاب: بداية التاريخ... قصة الهجرة النبوية ودلالاتها

اسم المؤلف: عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

نوع المطبوع: كتاب - الطبعة الأولى - عدد الصفحات: ١٧٦

السلسلة: قضايا التوعية الإسلامية (٢٧)

الناشر: مبرة الآل والأصحاب

ص. ب- ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥٥ - ت: ٢٥٦٠٢٠٣

ردمك: ٥-٩١-٦٤-٩٩٩٦٦-٩٧٨ ISBN

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب

الطبعة الأولى

١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net

بالتعاون مع

دار الظاهرية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

www.daradahriah.com

بداية التاريخ

سنة ١٤٤٧هـ

قصة الهجرة النبوية ودلالاتها

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

مبرة الآل والأصحاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ كَرْبٍ فَرَجًا، وَصَيَّرَ الضِّيقَ لِلْمُتَّقِينَ مَخْرَجًا، وَفَتَحَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْهِجْرَةِ بَابًا وَمَوْلِجًا. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَجَلَّ حَادِثَةٍ صَدَعَتْ بِالْحَقِّ رَكَائِبُهَا، وَأَعَزَّ سِيرَةٍ سَارَتْ فِي الْآفَاقِ مَوَاكِبُهَا، هِيَ «الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الْمُبَارَكَةُ»، وَلَمْ تَكُنْ تلك الهجرة جَزَعًا مِنْ مِحْنَةٍ، بَلْ كَانَتْ فَتْحًا لِمِنْحَةٍ.

وَقَدْ رَتَّبَ أخونا الشيخ عبد الوهاب الطريري أباالخيل هَذَا السِّفْرَ الْمَبْرُورَ موسومًا بـ«بداية التاريخ.. قصة الهجرة ودلالاتها»، يَجْمَعُ بَيْنَ رِوَايَةِ الْخَبَرِ وَدِرَايَةِ الْعِبَرِ، فَصَّل فِيهِ مَرَاحِلَ الرِّحْلَةِ وتهيئة الله لأسبابها في عالم الغيب البعيد، قبل أن يولد الرسول ﷺ وتُعلن الرسالة، ثم مسيرتها مِنْ بَدْءِ الْخُرُوجِ لَيْلًا إِلَى نُزُولِ يَثْرِبَ نَهَارًا، مبرزا أَهَمِّيَّةَ الْحَادِثَةِ، وكيف أرَّخ بها الفاروق بداية التاريخ للأمة، مُلمِعا لفضل الصحابة المهاجِرين الذين تخلَّوا عن مآرب الدنيا من أجل الدين، ففارقوا الوطن والأهل والمال في سبيل دينهم واتباع رسولهم، فهل يُظنُّ بهم بعد ذلك أن يتخلَّوا عن دينهم وينقضوا عهد نبيِّهم لطمعٍ دنيوي؟! كيف وقد أثنى الله عليهم فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحشر: ٨]، فهل يثني الله عليهم هذا الثناء في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة وهو يعلم أنهم سيرتدون بعد الإيمان، وينقضون عهده بعد الميثاق؟! كلَّا وحاشاهم رضي الله عنهم، فحادثة الهجرة تزكية لهؤلاء الأصحاب، وإعلان براءةٍ وطُهرٍ من النفاق.

وهو ما يصب في أهداف مبرة الآل والأصحاب، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَمُقَرِّبًا إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

مبرة الآل و الأصحاب

المقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد:

فإن الهجرة النبوية سفر لا كالأسفار، ورحلة ليست كأي رحلة، فهي الحدث الذي تغيرت به حياة البشرية، وتحول بها مسار التاريخ.

هي الرحلة التي أزالت الطغيان ونشرت النور، ولفتت أنظار البشرية إلى الطريق الواضح المستقيم.

ولم تكن الهجرة النبوية مجرد انتقال مكاني من مكة إلى المدينة، بل هي سؤال مفتوح على التاريخ والحضارة:

ولم تكن الهجرة حركة جسد عبر الصحراء، بل هي تحوّل أمة من الاستضعاف إلى التمكين، ومن الدعوة إلى الدولَة.

لقد كانت انبلاج الفجر بعد ليل مظلم، وانطلاقة الحرية بعد قيد مؤلم، ووثبة قوة بعد استضعاف طويل، وكانت الحدث الذي طوى صفحة الظلم، ومدّ بساط العدل، وأخرج البشرية من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وما زالت الهجرة تطرح على القارئ والباحث سؤالها الخالد:

كيف يتحول الاضطهاد إلى طاقة بناء؟

وكيف تصبح محنة الغربة منطلقا لحضارة؟

يا لله كيف أخرج من مكة ليعود إليها فيفتتحها؟

وأُقصي عن الكعبة ليعود إليها فيطهرها؟

وأخرج من الوطن ليدخل التاريخ؟

كيف كانت أول خطوة له في الخروج من مكة مهاجرا هي أول خطوة له في العودة إليها فاتحا؟[1].

طردوه فآواه الله.

وأبعدوه فقربه الله.

وحاربوه فنصره الله.

أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأتم الله نوره، وأضاء به الدنيا كلها.

وفي كل مرة يتجدد الحديث عن الهجرة تتداعى المعاني، وتتجدد الدروس والعبر.

ولقد لفت نظري وأنا أطالع مجلدات مجلة الرسالة أنها كانت تَنشرُ في كل عدد من شهر محرم مقالات لعلماء وأدباء تتحدث عن الهجرة، فتجد عند كل متحدث ما ليس عند غيره، وينكشف لكل متأمل ما لم ينكشف للآخر.

(١) «أو مخرجي هم»، ياسين أديب جاسم (١١).

وستظل السيرة النبوية وما تدلّ عليه أحداثها وما يستفاد من دروسها نهراً غزيراً متدفّقـًا متجدداً، يغترف كلٌّ منه بحسب سعة إنائه، ويتحدث كلٌّ بما يفتح الله عليه.

في هذا الكتاب سنحاول أن نقرأ الهجرة بنظرة أخرى مختلفة: لا كحدث ماضٍ يُروى، بل كتحوّل حضاري يمد جذوره في كل زمن، ويُقدّم دروسا تتجدد للأفراد والأمم.

فإلى الحديث الشائق عن الهجرة، والنظر المتأمل في دروسها وعبرها.

سائلا الله أن يفيض علينا من النظر فيها محبة لهذا النبي الكريم تحيا بها قلوبُنا، ويزداد بها إيماننا، فنقفو أثره، ونسير على سنته ﷺ حتى نلقاه يوم القيامة على حوضه، ونسعد بصحبته في الآخرة، إذ فاتنا لقاؤه في هذه الدنيا، فإن محبته وسيلة إلى مرافقته، فهذه بشراه لأمّته يوم قال: «**المَرْءُ مع مَن أَحَبَّ**»[1].

فبعون الله نبدأ، ومع الموكب النبوي نسير.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

اسطنبول، باشاك شهير

٢٠٢٥/٠٨/٠٥

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٠).

في أثر الأنبياء

الهجرة حدث تكرر في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وكان أعداء الرسل والرسالات يتتابعون على إخراج الأنبياء وحملهم على الهجرة عن ديارهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [ابراهيم: ١٣]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فهاجر أنبياء كثُر من مواطنهم إلى أرض أخرى، أتموا فيها دعوتهم، وقضوا بقية أعمارهم.

فأبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر من العراق إلى فلسطين ومات هناك.

ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر مع عمه إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ونزل في الأردن.

ويعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر من أرض فلسطين إلى ابنه يوسف في مصر ومات هناك.

ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ انتقل من أرض فلسطين إلى مصر ثم مكّن الله له، واستوطن ومات هناك.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر هجرتين، هجرة قبل النبوة عندما خرج من مصر ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، فهاجر إلى أرض مدين، وهجرة بعد النبوة حينما هاجر ببني إسرائيل من مصر متوجها بهم إلى الأرض المقدسة فلما أبوا أن يدخلوها قضى بقية عمره معهم في تيه سيناء ومات في آخر عمره قرب الأرض المقدسة.

وهكذا تتابعت الهجرات في مسيرة الأنبياء والرسل.

ولكن أضخم هجرة في التاريخ وأعظمها أثراً كانت هجرة نبينا ﷺ؛ لأنها الهجرة التي تغير بها مسار تاريخ البشرية.

لقد خرج موسى بقومه لينقذهم من الاستعباد، وخرج محمد ﷺ بأصحابه لينقذ بهم البشرية من طغيان الظلم وتيه الضلال.

ولذلك نقول بكل اطمئنان: إن تاريخ البشرية قبل الهجرة ليس كتاريخ البشرية بعدها، فقد تغير اتجاه التاريخ ومسار أحداثه.

وبقيت الهجرة المحمدية هي الأعمق أثراً، والأوسع دلالةً، لأنها لم تكن مجرد فرار من ضيق، أو نجاة من اضطهاد، بل كانت ميلاد أمة جديدة تحمل رسالة خالدة تتجاوز الزمان والمكان.

بشائر الهجرة

أليس من العجب أن خبر الهجرة يأتي إلى النبي ﷺ مع أول نزول الوحي عليه؟ فحين نزلت عليه سورة «اقرأ» في أول لقاء له بجبرائيل في غار حراء، أتاه خبر الهجرة في نفس ذلك اليوم.

لقد عاد النبي ﷺ من غار حراء إلى أمنا خديجة فزعا يقول: «**لَقَدْ خِفْتُ عَلَى نَفْسِي**»، فقالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا» ثم أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان من علماء أهل الكتاب قد تنصر في الجاهلية وقرأ كتب أهل الكتاب، وصار لديه علم من النبوات السابقة، فأخبرته الخبر وقالت له: «يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك»، فسمع ورقة من النبي ﷺ ما جرى له في غار حراء، وكان يترقب البعثة النبوية من خلال البشائر الموجودة في كتب أهل الكتاب، فقال له: «هذا الناموس الذي ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا إذ يخرجك قومك»، وهنا نلاحظ أنَّ النبي ﷺ مع أول طلائع الوحي يقول له ورقة: «ليتني فيها جذَعا إذ يخرجك قومك»، فقال النبي ﷺ بفزع: «**أَوَ مُخرِجي هُم؟**»، لأن مفارقة الأوطان من أشق ما يكون على النفوس، ولأن هذا شيء غير متوقع، فهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وقصي هو الذي جمع قريشاً في مكة،

فهو ابن سادتها ومؤسسيها، فكيف يخرجونه منها؟! وهو مَرْضيٌّ عند قريش كلها، يسمونه الصادق والأمين، فكيف سيعادونه ويؤذونه؟! قال ورقة: «نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا»[(١)]، وكأن ورقة يشير إلى هجرات الأنبياء السابقة، وقد قرأ في كتب أهل الكتاب أن هذا النبي سيبعث ثم يهاجر بسبب إيذاء قومه، فجاء خبر الهجرة باكراً مقترنا بأول نزول الوحي.

ثمّ إن النبي ﷺ عندما انطلق بدعوته وآمن به من آمن في مكة ثم ناصبته قريش العداوة، أُريَ دار هجرته في الرؤيا، فرأى أنه سيهاجر إلى بلدة ذات نخل. فكان يقول لأصحابه: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ أَرْضًا ذَاتَ نَخْلٍ، وَلَوْلَا أَنَّ السَّرَاةَ لَيْسَتْ بِأَرْضِ نَخْلٍ لَقُلْتُ هِيَ السَّرَاةُ**»[(٢)]. وقال النبي ﷺ: «**فَذَهَبَ وَهْلِي** -أي ظني- **إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرٌ**[(٣)]»[(٤)]، وهما مشهورتان بأنهما أرض نخيل، فذهب ظنّه ﷺ إلى أن مهاجَره اليمامة أو هجر، لكن لم تكن اليمامة ولم تكن هجر وإنما كانت يثرب، طيبة الطيبة.

إن رؤية النبي لأرض مهاجَره وهو في مكة في وقت المواجهة والإيذاء هو نوع من التهيئة له ﷺ وأصحابه بأن هناك هجرة، وعليهم أن يستعدوا لها.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٥٣).

(٢) و«السراة»: هي الطائف وما عنها جنوبا، وهي أراضٍ جبلية، ليست أرض نخل.

(٣) «اليمامة»: هي مدينة الرياض في وسط السعودية وما حولها، و«هجر»: هي المنطقة الشرقية في السعودية وتسمى الأحساء.

(٤) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

الطريق إلى غار حراء

جبل حراء

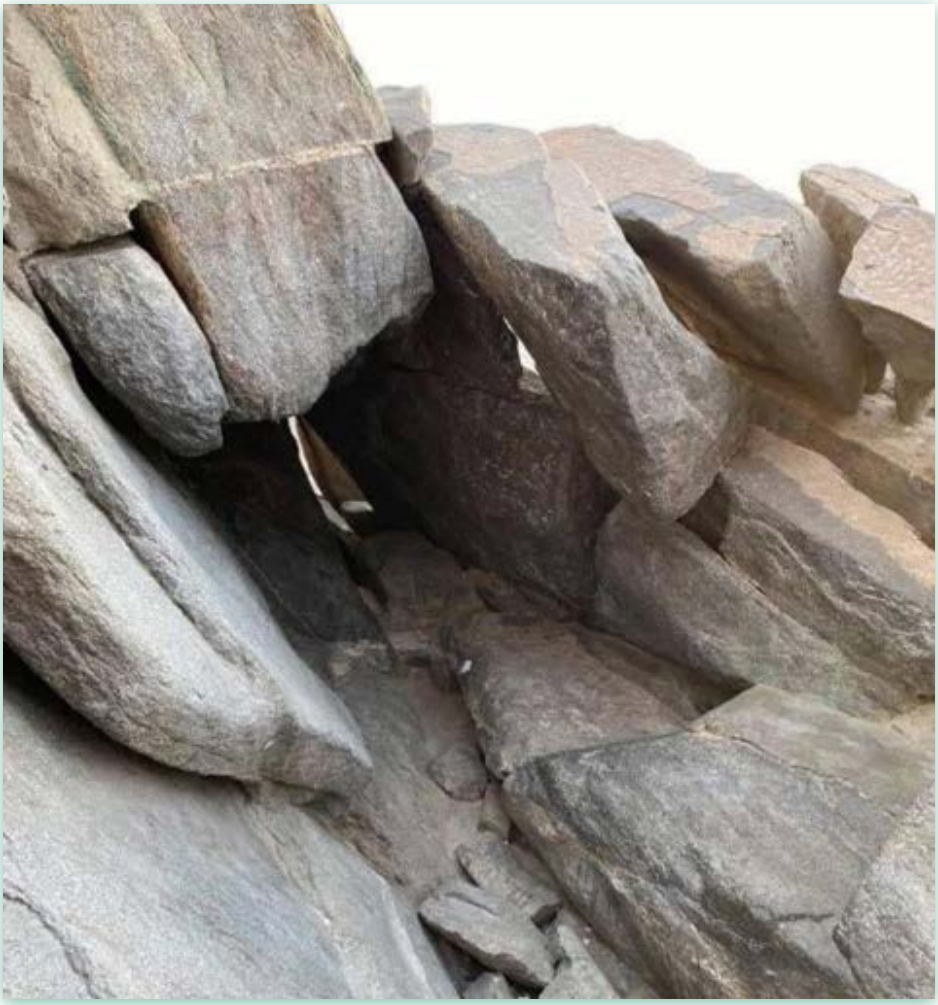

غار حراء

الهجرة في الغيب البعيد

إن مهاجَر النبي ﷺ إلى المدينة كان يُصنع في الغيب البعيد، قبل أن يولد النبي ﷺ وقبل أن يولد أبوه وجده.

ومما يدل على ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجدون في كتبهم أن مهاجَر النبي المنتَظَر ﷺ سيكون إلى أرض ذات حرار ونخل. ولذلك لما أُجلي اليهود من الشام دخلوا في عمق الجزيرة العربية. فصاروا يبحثون عن الأماكن التي ينطبق عليها وصف المهاجر النبوي، فنزلوا في الأماكن التي تنطبق عليها هذه الصفة. نزلوا في وادي القُرى، ونزلوا في المدينة، ونزلوا في خيبر، ونزلوا في فدك، والقاسم المشترك بين هذه الأماكن أنها أرض ذات حرار ونخل، فكانوا يستوطنون هذه النواحي يترقبون فيها بعثة هذا النبي الذي يتوقعون أنه سيكون منهم.

ويهود المدينة سبقوا الأوس والخزرج إلى سُكناها، لما نزحوا من الشام، ثم جاء الأوس والخزرج من اليمن، فسكنوا المدينة فلمّا تكاثروا استنصروا بالغساسنة في الشام وتغلبوا على يهود المدينة، فكان اليهود يقولون لهم:

«إننا نترقب بعثة نبي سنتَّبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم»[1]، ففشت ثقافة انتظار النبي لدى الأوس والخزرج -مع أنهم وثنيون- من خبر اليهود هذا.

ثم كان من صنع الله عَزَّوَجَلَّ ولطف تدبيره لشأن الهجرة أن جَدَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هاشمَ بن عبد مناف كان يذهب إلى الشام فيمر بالمدينة، فنزل بها، وتزوج من بني النجار زوجته سلمى، ثم ذهب إلى الشام، ومات في غزة، ولذلك تسمى غزةُ غزةَ هاشم، واشتملت زوجته سلمى على حمل من هاشم، فولد له ابنه شيبة، والذي عُرف بعد بعبدالمطلب، ونشأ في المدينة حتى صار شابًّا مراهقًا، فأتى إليه عمه المطلب بن عبد مناف وعاد به إلى مكة لينشأ عند أعمامه ويتولى معهم شؤون البيت المعظَّم الكعبة المشرفة، فلاحِظْ هذه العلاقة المبكرة بين المدينة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إنها البلدة التي ولد فيها جده، وأهل المدينة هم أخوال جده.

ثم إن عبدالمطلب سكن في مكة، وولد له بنوه، ومنهم عبدالله أبو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلما تزوج عبدالله بآمنة بنت وهب واشتملت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حملا في أحشائها أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة ليجتلب منها تمرا، فلما ذهب إلى يثرب وكانت موبوءة بالحمى؛ لأنها ريف كثير المستنقعات، فأصابته الحمى، ومرض عند أخوال أبيه بني النجار ثم توفي عندهم، فدفن في بيت من بيوت بني النجار يسمى بيت النابغة[2].

ففي المدينة ولد جد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وفي المدينة مات أبوه، وهذه علاقة أخرى رابطة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبين المدينة.

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٣٥٤).
(٢) «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦٥).

ولمّا ولد النبي ﷺ وبلغ السادسة من عمره وكانت أمّه آمنة بنت وهب تحب زوجها عبد الله حبا شديدا، ولذلك لم تتزوج بعده على خلاف عادة العرب، فإن الأيم كانت تتزوج بعد وفاة زوجها، أمّا آمنة فقد بقيت وفية لذكرى زوجها عبد الله، فلما بلغ ابنها السادسة سافرت هي وإياه إلى المدينة لتزور قبر زوجها الذي أحبّته، ولذلك سكنت في دار النابغة التي فيها قبر زوجها وبقيت فيها شهرا وكانت هذه زيارة النبي ﷺ الأولى إلى المدينة، وهو في السادسة من عمره وكأنما هي تهيئة للهجرة التي ستكون بعد نحو خمسين سنة، ولذلك فإن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، كان يستعيد ذكريات تلك الزيارة فيشير إلى جدار في المدينة ويقول: «**كُنتُ أُلاعِبُ أُنَيسَة جَارِيةً مِنَ الأَنْصارِعَلى هَذَا الأُطُم وَكُنْتُ مَع غِلمانٍ مِنْ أَخْوَالي نُطَيِّرُ طَائِراً كَانَ يَقَعُ عَلَيْه**»[1].

وأنيسة صبيّة كانت في سن النبي ﷺ ذلك الوقت، وفي المدينة تعلم النبي ﷺ السباحة في آبار المدينة وهو في السادسة من عمره.

ثمّ بعد شهر عادت آمنة ومعها ابنها ولكنها كانت قد أصيبت بالمرض الذي أصاب زوجها، فماتت في الطريق ودُفنت في منطقة الأبواء بين مكة والمدينة.

وكل هذه الأحداث كانت تهيئة في الغيب البعيد للهجرة النبوية بعد ذلك.

(١) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١١٦).

مشهد لنخيل المدينة عند جبل أحد

مشهد لنخيل المدينة حول مسجد قباء

تهيئة المدينة للهجرة

بُعث النبي ﷺ وفشت دعوته في مكة وما حولها، وفي السنة الثامنة من البعثة، وقعت معركة في المدينة بين قبيلتي الأوس والخزرج، وكان الخزرج هم الأكثر عددا، كانوا يرجعون جميعاً إلى أصلٍ واحد، إلا أنهم تفرّعوا ثم تنافسوا، ولجّت بينهم العداوة والحروب التي استمرت مئة وعشرين سنة، وكان آخرها هذه المعركة التي تُسمّى بعاث، فانتصر الخزرج في أولها ثم انتصر الأوس في آخرها، فانتهت المعركة بانتصار الأوس على الخزرج، وحصل في هذه المعركة أمران مهمان يهيئان للهجرة:

الأول: أن قيادات الأوس والخزرج قُتلت في هذه المعركة، وتمت تصفية الزعماء الكبار، فقد قتل فيها زعيم الخزرج عمرو بن النعمان البَيَاضِيُّ، وزعيم الأوس حُضَير بن سِمَاك الأشهلي، وأشدّ مَن يواجه الرسل هم الزعماء الذين ذاقوا نشوة الزعامة، وكبرياء الرئاسة، ولم يبق من الزعامات السابقة إلا عبد الله بن أبي بن سلول، الذي شرِق بالإسلام، ونقم على الرسول أنه أزاح زعامته فيما يرى، فكيف لو كان بقية الزعماء معه؟! إذن فلربما واجه الرسول ﷺ اصطفافاً للملأ كالذي واجهه في مكة من أبي جهل، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهم.

كما نتج عن هذه المعركة بروز قيادات شابة في المدينة مثل سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وهذه القيادات الشابة لديها لياقة للتغيير وليست مثل قيادات الشيوخ التي كبرت وتيبّست وصارت تقاوم كلّ تغيير.

الثاني: أن الذي انتصر أخيراً في هذه المعركة هم القبيلة الأقل عددا بينما الذي هُزم هم القبيلة الأكثر عددا، فإذا أرادوا أن يرشحوا بعد ذلك زعيما من الخزرج قال الأوس: «نحن الذين انتصرنا»، وإذا رشحوا زعيماً من الأوس قال الخزرج: «نحن الأكثر عددا». فلا الأوس ستقبل زعيماً من الخزرج وقد انتصروا عليهم، ولا الخزرج ستقبل زعيماً من الأوس وهم أكثر منهم، وفي مثل هذه الحالة إذا كان كل فريق يرفض الزعامة من الفريق الآخر فإنهم عادةً يصطلحون على زعيم يكون من خارج القبيلتين فيتقبَّله جميعهم، وبقي منصب الزعامة العامة شاغراً كأنما ينتظر النبي ﷺ ليصطلحوا عليه، فلما التقى النبي ﷺ بوفد الأوس والخزرج في بيعة العقبة الأولى، قالوا له: «إنا قد تركنا قومنا وليس بين قوم من الشر كما بينهم..، فإن يجمعهم الله بك فلا أحد أعز منك»[1]. ولذلك قالت أمنا عائشة: «كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ، فقدم وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سراتهم وجُرِّحوا، فقدّمه الله لرسوله سبباً في دخولهم الإسلام»[2]. أي: أنه كان تهيئة للمدينة لتكون مهاجَراً لرسول الله ﷺ تؤويه وتتبعه وتجتمع عليه.

فكل هذه الأحداث من صنع الله في الغيب البعيد تهيئة للهجرة النبوية، وذلك من لطفه في تقديره، وحكمته في تدبيره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

---

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٧٧).

في انتظار الهجرة

حين كان النبي ﷺ وأصحابه يلاقون الأذى في مكة، كان يخبرهم ويقول: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ أَرْضًا ذَاتَ نَخْلٍ**»(١)، فكان ﷺ وهو في مكة يعلم أنه سيهاجر، وأن مهاجرَه أرضٌ ذات نخل وأنه سينتقل إليها هو وأصحابه، وأنزل الله تعالى عليه ﷺ وهو في مكة، تهيئةً للهجرة، قولَه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. وفي هذا التلقين إشارة إلهية إلى أن الله تعالى سيُخرجه من مكة إلى مهاجَر غيرها، والظاهر أن هذه الآية نزلت قُبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة للهجرة إلى المدينة(٢).

ولِذا كان إذا أتاه أحد من القبائل من خارج مكة وأسلم ورغب في البقاء عنده أمره أن يرجع إلى قومه، وينتظر هجرته وظهوره، ومن ذلك ما جرى لعمرو بن عَبَسَة السُلَمِي، قال عمرو بن عَبَسَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل في مكة يخبر أخباراً فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ، وقومه قد تجرؤوا عليه،

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

(٢) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٥/ ١٨٦).

فتلطّفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت: ما أنت؟. قال: «**أَنَا نَبِيّ**». فقلت: وما نبيّ؟. قال: «**أَرْسَلَنِي اللهُ**». فقلت: وبأي شيء أرسلك؟. قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَأَنْ تُحْقَنَ الدِّمَاءُ، وَتُؤَمَّنَ السُّبُلُ، وَتُكَسَّرَ الْأَوْثَانُ، وَيُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**». فقلت: نِعم ما أرسلك به، إني أشهدك أني قد آمنت بك، وصدّقتك، أفأمكث معك؟. قال: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَائْتِنِي**»[(١)].

ومثل ذلك حصل لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء إلى النبي ﷺ في مكة، وأسلم، فقال له النبي ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ عَلَيْنَا**»[(٢)].

فكانت الرؤية واضحة، والطريق لاحبةً، والثقة بموعود الله يقينية قاطعة، كأنّها رؤية عين، مع عدم تعجل الخطوات، أو حرق المراحل، فلكل فرصة وقتها، ولكل ثمرة موعد نضجها وقطافها، ولِذا كان يضبط انفعال المؤمنين معه، بانتظار البشرى المحققة، ويقول: «**وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[(٣)].

(١) «مسند أحمد» (١٧٠١٦)، و«صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦١٢).

دوافع الهجرة

ما الذي دفع النبي ﷺ وأصحابه إلى الهجرة إلى المدينة؟

الجواب المباشر هو أذى قريش، ووقوفها في وجه بلاغ الدعوة ونشر الرسالة، وهنا نحتاج إلى الوقوف عند أمرين مهمَّين:

أوّلاً: أن قريشًا لم تواجه النبي ﷺ لأنه لم يكن يعبد آلهتها، فهو قبل النبوة لم يعبد صنمًا قط، ومع ذلك لم تتعرض له بسوء، وقبله ورقة بن نوفل ترك دينهم واعتزل أصنامهم وتنصَّر، ولم يكترثوا له، ولِذا فلم يكن يُهِمّ قريشًا أن يترك محمدٌ ومَن معه عبادة الأصنام.

ولكن المواجهة بدأت عندما أعلن لهم النبي ﷺ أنه مرسَل من عند الله ليصحح لهم دينهم، ويأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة الأصنام، واتخاذها آلهة مع الله، وهكذا فعل أتباعه المؤمنون برسالته، وهذا ما استفزّ قريشًا للمواجهة، فكانت المواجهة والعداوة للدعوة إلى الحق، وبيان الحقيقة، وكشف زيف الأصنام، أما مجرد اعتزال الأصنام فلم يكن يعني قريشًا، وإنما قضيتها ومواجهتها مع مَن يُعلن باطلها، ويكشف زيف آلهتها،

ويدعو إلى وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، ويبين حقيقة هذه الآلهة المتوهَّمة، ولِذا وقفت في وجه دعوة النبي ﷺ ورسالته، وتشبثت بدينها الباطل، واجتهدت أن تحول بين النبي ﷺ ودعوته وبلاغ رسالته، وهكذا سدنة الباطل، وأعداء الرسالات، لا يهمهم الصالح في نفسه المنكفئ على ذاته، ولكن يستثيرهم المصلح الذي يجهر بالحق، وينشر الدعوة، ويوقظ الناس من الغفلة، فذلك الذي يُستَنفرون لمواجهته، ويصطفون لمحاربته.

فكان ذلك دافعـًا له ﷺ أن يبحث عمَّن يؤويه وينصره حتى يبلّغ رسالة الله التي ابتعثه بها.

ثانيـًا: أن أذى قريش للنبي وأصحابه ليس كما يتصوَّره ويصوِّره بعض الذين كتبوا في السيرة، حيث نقلوا واقع سجون المخابرات وأجهزة الأمن القمعية في بعض البلاد، وما فيها من عذابات وإجرام، فأسقطوه على ما يُروى في سيرة النبي ﷺ، والواقع أن الأذى الذي تعرض له الصحابة هو في غالبه أذى اجتماعي، وليس أذى جسديّـًا، لأن بيئة مكة ليست بيئة دكتاتورية، وإنما هي بيئة عشائرية، وليس في مكة أمير أو ملك مستبِدّ، لكن فيها زعماء عشائريّون يجتمعون في برلمان هو دار الندوة، ويتخذون القرارات بشكل جماعي، ولذا فإنّ أي عشيرة لا يمكن أن تسمح لأحد من خارج العشيرة أنّ يؤذي واحداً من أبنائها. وقد قال العباس بن عبد المطلب للأنصار ليلة العقبة: «إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده»[1].

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٤٤).

وهكذا بقية مؤمني قريش، فعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم وهومن بني عبد شمس، ولا يجرؤ واحد من بني مخزوم أو غيرهم أن يؤذيه، فإنّ بني عبد شمس مسلمهم وكافرهم سينصرونه، وهكذا غيره مع عشائرهم، ومما يبين ذلك أن نفراً من بني مخزوم جاؤوا إلى هشام بن الوليد بن المغيرة وهو مشرك، يستأذنونه في معاقبة ابن عمه عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي -وكان قد أسلم- فقالوا له: إنا قد أردنا أن نعاقب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، وإنا نستأذنك في عيّاش، فقال هشام: «هذا عيّاش، فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلاً».

ألا لا يُقتلنَّ أخي عُيَيشٌ ... فيبقى بيننا أبداً تلاحي

فقالوا له: ما أتينا لنقتله، ولكن أتينا لنحاجِجه، وعاد القوم من حيث أتَوا، وقال بعضهم لبعض: اللهمّ العنهُ، منْ يغررُ[1] بهذا الخبيث، فو الله لوْ أصيبَ في أيدينا لقتلَ أشرفنا رجلا، وانصرفوا عن عيّاشٍ فلم يؤذوه[2].

فهذا ابن عمه المشرك غضب له ودافع عنه عصبية وحميّة لقرابته.

أمّا ما كان يتعرض له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والصحابة فهو الأذى الاجتماعي، وليس الأذى البدني المباشر، وإن كانت تحصل منه حالات نادرة، كما جرى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين أُلقي سلا الجزور على ظهره وهو ساجد، أو حين خنقوه بمجامع ردائه،

(١) أي: مَن يخاطر معه ويستثيره.

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢١).

وقد وقع ذلك بعد وفاة أبي طالب، فتجرأت قريش على رسول الله ﷺ بما لم تكن تجرؤ عليه من قبل، كما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**مَا زَالَتْ قُرَيْشٌ كَاعَّةً حَتَّى تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ، وَمَا نَالَتْ مِنِّي شَيْئًا أَكْرَهُه حَتَى تُوفِيَ أَبُو طَالِبٍ**»(١).

وهي حالات نادرة في عمر الدعوة، ولم يكن بالأذى المتتابع.

وكذلك ما أصاب الصحابة من أذى في مكة، كان أكثره من أقاربهم؛ فالذي آذى الزبيرَ هو عَمُّه، والذي آذى مصعبَ بن عمير أمُّه، والذي حبس أبا جندل بن سهيلَ بن عمرو أبوه، ولم يكن غير الأقارب يجرؤون على المساس بهم.

لكن ليس هذا هو الأذى العام المتكرر، وإنما هو إيذاء عارض بحسب حال كلٍّ منهم، أما الأذى العام والدائم المستمر فإن كل واحد منهم إذا أتى إلى قومه جعلوا يبكّتونه، ويلومونه، وينفضّ عنه أصدقاؤه، ويتنكّرون له.

أمّا الذين كانوا يعذبون تعذيبا جسديا فهم الأرقاء، كبلال، وعمار بن ياسر، وأبيه ياسر، وأمّه سمية، وخباب بن الأرت، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهؤلاء كانوا يعذبون لأن الثقافة العربية كانت تتعامل مع العبد المملوك على أنه متاع يتصرّف فيه مالكه كما يتصرّف في بقية ممتلكاته، فهؤلاء يعذَّبون، ولكن الذي يعذبهم أسيادهم فقط، ولا يتعدّى عليهم غيرهم. وكان العذاب الجسدي مُنصَبّاً على هؤلاء الأرقاء.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف هذه الحال: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ،

(١) يُنظر: «المستدرك» للحاكم (٤٢٤٣)، و«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٦٦). و«كاعّة»: أي متوقفة وخائفة حذرة.

فَأَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي الله، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ»[1]. وما ذكره ابن مسعود من حماية النبي ﷺ بعمه أبي طالب، وحماية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعشيرته، ينطبق على المؤمنين الذين لهم عشائر وأقوام تحميهم، وما ذكره من صنوف العذاب بإلباس الحديد والتعذيب في الشمس وغير ذلك فقد أصاب الأرقاء، ولم يذكر أن شيئًا من ذلك أصاب المؤمنين من قبائل قريش.

إننا نتصور هذا الأمر حتى لا ننقل معاناة زماننا إلى عصر النّبوّة، وكأنما نظن أن الرسول ﷺ لا يُمدح إلا بهجاء قومه، فـ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد بعث الله نبيه ﷺ في مكة لحِكم كثيرة منها: أن مجتمع مكة مجتمع عشائري، له قيم وأخلاق كريمة، وليس مجتمعًا ملكيًّا استبداديًّا، ولذا يقال عن قريش: إنها لَقَاحٌ لا تُملك، أي: لا تخضع لسلطة، ولا يستبد بها ملك، فلم يواجه النبي ﷺ وأصحابه ما واجهه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود، ولا ما واجهه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون.

وكان الأذى الذي تعرض له الصحابة هو ذاك الذي يجعل الانسان وهو في بلده وبين عشيرته يعيش غربة ومقاطعة، وهذا ليس بالأمر الهين في مجتمع مكة ونحوه

(١) «سنن ابن ماجه» (١٥٠).

من المجتمعات الصغيرة، بحيث يعيش الإنسان في محيطه محاصراً باللوم والعتاب والهجران، ولِذا قال كعب بن مالك يصف حاله حين أُمر المسلمون بهجرهم في المدينة: «تَنكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الأرض الَّتِي كنت أَعْرِفُ»(١). ووصف الله حالهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]. وهذا الإيذاء هو الذي اضطر الصحابة إلى الهجرة الأولى والهجرة الثانية للحبشة.

إن الصحابة عندما تعرضوا للأذى هاجروا إلى الحبشة مرتين، ولكن النبي ﷺ لم يصحبهم إليها. لأن هجرتهم إلى الحبشة كانت هجرة للبحث عن الأمان، وتخفيف الضغط الذي كانوا يواجهونه، كما أن في هذه الهجرة تخفيفاً عن النبي ﷺ من إشغال فكره، واهتمامه بأصحابه، وهم يعانون فيرى معاناتهم وهو مكفوف عن الدفع عنهم، فكان في هجرتهم تخفيف عنهم وعنه ﷺ، ليتفرغ إلى واجبه الأول والاهتمام بتبليغ رسالته للناس، وتتبعهم في أسواقهم ومجتمعاتهم.

كما أن في هجرتهم تلك احتجاجاً معلناً على تصرف قريش تجاههم، وأنهم سيتركون مكة إذا لم تتغير معاملة قريش لهم، وهذا يشكّل ضغطاً على قريش، ومعرّة عليها، وسبّة عند القبائل حولها، أن تتحدث القبائل حول مكة أن قريشاً آذت ناساً من عشائرها حتى اعتزلوها وهاجروا عنها.

(١) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصف ذلك: «لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ، وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مَا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**». فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا وَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا»[1].

ولم تكن هجرتهم هذه هجرة بالدعوة ولذلك لم يهاجر النبي ﷺ معهم، وبقي في حماية قومه بني هاشم، لكن هذه الهجرة أعطت نوعًا من التهيئة واللياقة للهجرة الثانية، وهي الهجرة إلى المدينة، والتي تختلف عن الهجرة إلى الحبشة. فالهجرة إلى المدينة هي هجرة بالدعوة وبالرسالة في بيئة تحميها وتتحمل مسؤولية الدعوة إليها، وكانت الهجرة للحبشة توطئة هيأت الصحابة لهذه الهجرة التأسيسية، ولذلك نلاحظ أنهم بمجرد ما تمت بيعة العقبة الثانية وإذا الصحابة كأنما هم غمامة سارت جميعا، فخلال شهرين كان كل من يستطيع الهجرة قد هاجر إلى المدينة.

(١) «مسند أحمد» (١٧٤٠) مختَصراً، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٧٧٣٤).

البحث عن وطن النصرة

عندما اشتد أذى قريش، خصوصا بعد وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة لجّت قريش في العداوة، واتضح بعد محاولة عشر سنين أن قريشاً لا يمكن أن تكون حضناً لهذه الدعوة ولا منطلقاً لها، وقد كان النبي ﷺ منذ بداية دعوته يغشى الأسواق ومجامع الناس، ويبلغ رسالة الله إلى القبائل الوافدة، ويعرض عليهم دعوته ورسالته، ثم صار بعد لجاجة قريش وإصرارها على الكفر ومحاربتها للدعوة، يطلب مع ذلك الانتقال إلى أرض وقبيلة تحمي دعوته وتنطلق بها. فكان يطوف على القبائل في المواسم والأسواق ومجامع الناس، يعرض دعوته ويبحث عمَّن ينصره، ويقول: «**مَنْ يُؤْوِينِي حَتَى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِي؟**» قال ربيعة بن عباد الأيلي رضي الله عنه: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**». وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**». إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ،

ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ»[1].

وكان ملأ قريش يصنعون دعاية مضادة لدعوة النبي ﷺ وكانوا يتلقون القبائل التي تأتي إلى مكة للحج يقولون لهم: «احذروا غلام بني هاشم، فإنه يقول كلامًا يفرق به بين المرء وقومه».

ومن ذلك ما حكاه الطفيل بن عمرو الدوسي أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا، فقالوا له: «يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا».

قال: «فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد قُطنًا، خوفًا أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٢٣)، و«المستدرك» للحاكم (٣٨).

إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني، لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولا حسنا، فاعرض علي أمرك. فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق»[1].

فهذا الاستنفار المُضادّ من قريش هو الذي دعا النبي ﷺ أن يبحث عن فرص أخرى ومكان آخر، ومن ذلك ذهابه إلى الطائف يعرض عليهم دعوته لعلّه يجد أرضاً خصبة، يستنبت فيها دعوته، ولكن دعاية قريش تبعته إلى الطائف تحذّر منه، وتصد الناس عنه، فعن عبد الرحمن بن أبي جبل العدواني، عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف[2]، وهو قائم على قوس، أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: «فسمعته يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]حتى ختمها، فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه»[3].

وأثرت دعاية قريش فيهم، فلم يستجيبوا له مع أنه بقي فيهم عشرة أيام، يدعوهم، ويقرأ عليهم القرآن، فما ازدادوا إلّا عتُوّاً ونفوراً، فعاد ﷺ إلى مكة

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٨٢-٣٨٣)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٦٠).
(٢) مشرق ثقيف: سوق بالطائف. تُنظر: «حاشية السندي على مسند أحمد» (٣١/ ٢٩٠).
(٣) «مسند أحمد» (١٨٩٥٨)، و«المستدرك» للحاكم (٣٨).

مغموماً مكروباً، يعلم أن أذى قريش سيشتد وأن جرأتها عليه ستزداد، وما كانت قبلُ قليلة، فأصابه من ذلك غمّ وكرب عظيم، فسار في طريق عودته، وهو مستغرق في أحزانه، لا يشعر بما حوله، وكان هذا أشدَّ موقفٍ مرّ عليه من قومه الذين تبعه كيدهم، حين ابتعد عنهم، وستستقبله شماتتهم حين يعود إليهم، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن والآلام النفسية توجه رسول الله ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء، الذي يفيض إيماناً ويقيناً، ورضا بما ناله في الله، واسترضاءً لله[1]، والتجاءً إليه، واعتصاماً به، وكان من دعائه في هذه الكربة: «**اللَّهمّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ**»[2].

ولكنّه مع هذا الغم وهذا الكرب لم يفقد أمله، ولم يتخلّ عن رسالته ودعوته، فقد سمع الله نداءه، واستجاب دعاءه، فنزل عليه جبرائيل عند مكان يقال له «قرن الثعالب» بين مكة والطائف، فقال: «**إِنَّ ربّك قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاه مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيه، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**» -وهما الجبلان اللذان يحيطان بمكة- فقال ﷺ: «**لَا، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ،**

(١) «السيرة النبوية» لمحمد أبو شهبة (١/ ٤٠٢).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٣/ ٧٣)، و«مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٠).

لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]. فمع كل هذا الإيذاء والابتلاء لم يستجب ﷺ لشهوة الانتقام، ولكنْ بقي أمله ممدوداً ينتظر الأجيال القادمة، لعلها تكون أكثر تقبّلاً للدعوة، وقد استجاب الله دعاءه، وحقق رجاءه، فمن كان يظن أن أبا جهل سيسلم ابنه عكرمة، وأن الوليد بن المغيرة سيسلم ابنه خالد، وأن أمية بن خلف سيسلم ابنه صفوان، وأن عتبة بن ربيعة سيُسلم ابنه أبو حذيفة، وابنته هند، وأن عقبة بن أبي معيط سيُسلم ابنه الوليد وابنته أم كلثوم.

وأن قريشًا كلها ستسلم بعد عشر سنين من هذا اليوم، وسيدخل الناس كلهم في دين الله أفواجًا.

قرن الثعالب بين الطائف ومكة، ويبعد عن الطائف (٤٦ كم)

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

لقاء الأنصار الأول

واستمر ﷺ في لقاء الناس ودعوة القبائل إلى الاستجابة والنصرة، يقول لوفود العرب وقبائلها: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»(١). و«**يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنْ الله مَا بَعَثَنِي بِهِ**»(٢).

وكلما عرض ذلك على قبيلة ترددوا أو رفضوا، وادّخر الله هذا الفضل لأهله، وأحق الناس به، وهم الأنصار، يقول جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟**» فلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حتى بَعثَنا اللهُ إِلَيْه مِن يَثْرِبَ فَآوَيناهُ وَصَدَّقْنَاهُ»(٣).

(١) «مسند أحمد» (١٥١٩٢)، و«المستدرك على الصحيحين» (٤٢٢٠)، و«سنن الدارمي» (٣٣٩٧).

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٣)، ويُنظر: «السيرة النبوية» مهدي رزق الله (٢٤٢).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٤٥٦).

وذلك أنه كان قد أتى مجموعة منهم حجّاجـًا، وكان ﷺ في موسم الحج يعرض نفسه على القبائل، كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند جمرة العقبة في مِنى لقي هؤلاء النَّفَر، وقد أراد الله بهم خيراً، فقال لهم: «**مَنْ أَنْتُمْ؟**». قالوا: نفر من الخزرج. قال: «**أَمِنْ مَوالي يَهُود؟**». قالوا: نعم. قال: «**أَفَلَا تَجْلِسُونَ فَأُكَلِّمَكُم؟**». قالوا: بلى. فجلس معهم، ودعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فلمّا سمعوا كلامه نظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم قد التقوا بمَن ينتظرونه، ووجدوا شيئـًا كانوا يبحثون عنه، فهم يخالطون اليهود، وقد أشاعت الثقافة اليهودية بينهم خبر بُشرى نبي سيُبعث، وكانت يهود تهددهم به ويقولون: «سنتبعه ونقتلكم معه». فلما سمعوا النبي يعرض الدعوة قال بعضهم لبعض: «تعلمون والله إنّه لَلنَّبي الذي تتوعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه»[(١)]. وقد عرض عليهم الدين فوجدوا دينا يلاقي الفطرة ويدل على الخير، فآمنوا به واتبعوه في مجلسهم ذلك، وقالوا له: «يا رسول الله، إنا قد تركنا قومنا وليس بين قوم من الشر مثل ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن جمعهم الله بك فلا أحد أعز منك»[(٢)]. فآمنوا من فورهم، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا، وكانوا ستة نفر، كلهم من الخزرج.

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٩).

وفي هذه المقابلة لم تكن بيعة ولا ميثاق، لأنها كانت مع نفر قليل لم يروا لأنفسهم حقًا في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قومهم ومعرفة موقفهم، ولكنهم أخلصوا إيمانهم واجتهدوا في دعوتهم وفي تبليغ رسالة الإسلام الذي آمنوا به[1].

جمرة العقبة قديمًا، وهي ملتصقة بالجبل قبل إزالته، وعندها كان اللقاء الأول بالأنصار.

(١) «السيرة النبوية» د. علي الصلابي (١/ ٣٤٤).

البيعة الأولى

ولما رجع هؤلاء الستة إلى المدينة نشروا الإسلام فيمن يعرفون، فأسلم أناس بإسلامهم، وفشا خبر الإسلام في المدينة، ولِذا عادوا في العام المُقبل فالتقوا بالنبي ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً، وتمّ بينهم وبينه بيعة عُرفت ببيعة العقبة الأولى، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ الله فَأَمْرُهُ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**». قَالَ عبادة: «فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ»[1].

ثم عاد هذا الوفد إلى المدينة وأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير، فهو أول سفير في الإسلام، واختاره النبي ﷺ لمؤهلات متوافرة فيه، أولها وأهمها: حفظه للقرآن، فهو من قرّاء القرآن، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره،

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٠٩).

ذو عزيمة ومضاء وصبر، وذو ذكاء اجتماعي، ولياقة عالية في تكوين العلاقات وحسن التواصل مع الآخرين، وقدرة فائقة على الإقناع، فلهذه المؤهلات وغيرها اختاره النبي ﷺ لهذه المهمة، وأرسله معهم داعيًا ومعلّمًا، فكان يؤمهم في الصلاة ويقرئهم القرآن، وكان يسمى مقرئ المدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة، وعندما بلغوا أربعين شخصًا أقام أسعد بن زرارة فيهم صلاة الجمعة، فهو أول من أقام الجمعة بالمدينة، وكان مصعب يؤمهم فيها.

ومن مشاهد مهارة مصعب الدعوية قصته مع أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، فقد قال سعد بن معاذ وكان من سادة الأوس لأسيد بن حُضَير: «ايت أسعد بن زرارة فازدجِره[1] عنا، فليكفَّ عنا ما نكره، فإنه قد بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب معه يتسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فإنه لولا ما بيني وبينه من القرابة كفيتك ذلك». فأخذ أسيد بن حضير الحربة، ثم خرج حتى أتاهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: «هذا والله سيد قومه، قد جاءك فأبل الله فيه بلاء حسنا». قال: «إن يقعد أكلمه»، فوقف عليهما متشتما[2] فقال: «يا أسعد ما لنا ولك تأتينا بهذا الرجل الغريب يسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا»، فقال: «أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره». فقال: «قد أنصفتم»، ثم ركز الحربة وجلس، فكلمه مصعب بن عمير، وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، قال أسعد: «فوالله لعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم لتسهله[3]»،

(١) فازدجِره أي: فازجُره وانهه. يُنظر: «مختار الصحاح» (١٣٥).

(٢) أي: متهيئا للمشاتمة والمخاصمة.

(٣) أي: استطلاق أساريره وانبساط وجهه وتهلّله.

ثم قال: «ما أحسن هذا وأجمله وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟»، قالا: «تغتسل، وتطهر ثيابك، وتشهد شهادة الحق، وتصلي ركعتين»، ففعل. ثم قال لهما: «إن ورائي رجلا من قومي إن تابعكما لم يخالفكما أحد بعده». ثم خرج حتى أتى سعد بن معاذ، فلما رآه سعد بن معاذ مقبلا قال: «أحلف بالله لقد رجع عليكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به، ماذا صنعت؟»، قال: «قد ازدجرتهما، وقد بلغني أن بني حارثة يريدون أسعد بن زرارة ليقتلوه ليخفروك فيه، لأنه ابن خالتك»، فقام إليه سعد مغضبا فأخذ الحربة من يده وقال: «والله ما أراك أغنيت شيئا»، ثم خرج فلما نظر إليه أسعد بن زرارة قد طلع عليهما قال لمصعب: «هذا والله سيد من وراءه من قومه، إن هو تابعك لم يخالفك أحد من قومه، فاصدق الله فيه»، فقال مصعب بن عمير: «إن يسمع مني أكلمه»، فلما وقف عليهما قال: «يا أسعد ما دعاك إلى أن تغشاني بما أكره - وهو متشتم - أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما طمعت في هذا مني»، فقال له: «أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته أُعفيت مما تكره». قال: «أنصفتماني»، قال أسعد: «ثم ركز الحربة وجلس فكلمه مصعب وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فوالله لعرفنا فيه الإسلام قبل أن يتكلم لتسهل وجهه». فقال سعد بن معاذ: «ما أحسن هذا وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟»، فقالا له: «تغتسل، وتطهر ثيابك وتشهد شهادة الحق، وتركع ركعتين، فقام ففعل ثم أخذ الحربة وانصرف عنهما إلى قومه». فلما رآه رجال بني عبد الأشهل، قالوا: «نقسم بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم»، فلما وقف عليهم قال: «يا بني عبد الأشهل: أي رجل تعلموني فيكم؟»

قالوا: «نعلمك والله خيرنا وأفضلنا فينا رأيا». قال: «فإن كلام نسائكم ورجالكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وحده، وتصدقوا بمحمد ﷺ»، قال: «فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما»[1].

ومرّت أشهر وأشهر ومصعب يعمل في المدينة بهمة، لا يعرف كللاً ولا فتوراً، يتحرّك بالقرآن ويحرّك به أفئدة الناس وعقولهم، وكانت آيات الله تملك في بنيتها المعجِزة سِحْر الإقناع، وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته إياها وسط حشود الناس التي تجتمع عنده مبهورة الأنفاس في مجالس المدينة وأنديتها[2].

وبدعوة مصعب بن عمير فُتحت المدينة، فهي أول بلد فتح في الإسلام، وأول فتح تحقق كان بالقرآن، وبوصول مصعب بن عمير إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام انتشر الإسلام في المدينة كانتشار ضياء الفجر، حتى غمر المدينة، ونجح مصعب في مهمته نجاحا باهراً، فلم يبق بيت من بيوت المدينة إلا دخله الإسلام، فلمّا كثر المسلمون في المدينة جعلوا يتشاورون فيما بينهم ويتساءلون: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟! لماذا لا نعرض عليه أن يأتي عندنا فيكون في عز ومنعة؟. فأرسلوا إلى النبي ﷺ يعرضون عليه هذا العرض، فقبل النبي ﷺ ذلك على أن يأتي إليه وفد من زعمائهم يعقد معهم البيعة على الهجرة والنُّصرة[3].

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩).
(٢) «دراسة في السيرة» د. عماد الدين خليل (١٣١).
(٣) يُنظر: «مسند أحمد» (١٤٦٥٣).

بيعة الهجرة والنُّصرة

وقدم وفد الأنصار في موسم الحج القادم سنة ثلاث عشرة من البعثة ليبايعوا النبي ﷺ على أن يهاجر إليهم، فقدم أعيانهم ونقباؤهم، وإذا كان المبايعون في البيعة الأولى اثنا عشر رجلاً فإنّ البيعة الثانية كان فيها واحد وسبعون رجلاً وامرأتان، وهذا يبين سرعة انتشار الإسلام في المدينة، وتجاوب الأنصار مع دعوة مصعب بن عمير، وكانوا قد صَلُّوا وفقهوا وعرفوا الدين، وكان كبيرهم وسيّدهم البراء بن معرور، وجاء معهم مصعب بن عمير وكأني به جاء بهم ومعهم ليقدم للنبي ﷺ نتاج دعوته، ويقرّ عينيه بنجاح مهمّته.

وكان الوفد القادم من المدينة للحج خليطا من المسلمين والمشركين، فكتم المسلمون الخبر عن رفاقهم المشركين حتى لا يتسرب إلى قريش، فتغضب لذلك وتحول بينهم وبين النبي ﷺ وتمنعهم مما عزموا عليه.

فلما وصلوا مكة خرج البراء بن معرور وكعب بن مالك يريدان أن يريا النبي ﷺ وهم الذين آمنوا به ولم يروه، فتوجّها إلى المسجد يسألان عن رسول الله ﷺ، فلقيهم رجل من أهل مكة، فسألوه عنه، فقال: «هل تعرفانه؟».

قالا: «لا والله». قال: «هل تعرفان العباس عمَّه؟». قالا: «نعم». وكانا يعرفان العباس، لأنه يقدم المدينة لتجارته، قال: «فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العبّاس تركته معه الآن جالساً»، فدخلا المسجد فإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلّما عليه، ثم جلسا عنده، فقال ﷺ للعباس: «**هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا عَبَّاسُ؟**». قال: «نعم، هذان رجلان من الخزرج، هذا البراء بن معرور، وهو رجل من رجال قومه، وهذا كعب بن مالك». فقال رسول الله ﷺ: «**كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الشَاعِرِ؟**»، قال كعب: «فوالله ما أنسى قوله ﷺ: «**الشَاعِرِ**»، وكأن كعباً قد صعد إلى السماء فرحاً أن النبي ﷺ يعرفه وسمع بشعره، وهذا من براعة النبي ﷺ في تأليف القلوب، وتشجيع الشباب وتحفيزهم، وكان كعب حينها شابّاً فتيّاً، ولكن الكلمة بقيت حية تدوّي في سمعه، وعمّرت معه، يتذكرها ويتحدث بها بنشوة وابتهاج بقية حياته.

وواعد النبي ﷺ الأنصار في آخر أيام الحج في شعبٍ في منى عند جمرة العقبة، وهذا الشِّعب داخل في العمق بين الجبال، فهو مكان خفي، إذا اجتمعوا فيه لا يراهم أحد[1]، فواعدهم النبي ﷺ فيه لتتم البيعة ليلا، بعد أن يكون الناس قد ناموا، واختاره في أيام منى وهي آخر أيام الحج، حتى يسافر الوفد بعد البيعة مباشرة قبل أن تعلم قريش بالخبر، أما لو تمت البيعة فور وصولهم فسيتسرب الخبر، وتعلم به قريش، فستستنفر قوتها للحيلولة دون ذلك.

(١) وبعد توسعة الجمرات وإزاحة الجبال حولها برز هذا المكان، وصار ظاهراً، وفي مكان البيعة مسجد يسمّى مسجد البيعة، بُني في عهد المهدي العباسي، ولا يزال قائما منذ (١٢٠٠) سنة.

فلما كانت ليلة المواعدة ناموا تلك الليلة مع قومهم في رحالهم، حتى إذا مضى ثلث الليل، وهدأت الرِّجل، خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ يتسلّلون مستخفين بحذر شديد، وسربوا إلى موعدهم، كما تسرب القَطا[1]، حتى اجتمعوا في الشِّعب عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون، فيهم أربعون رجلاً من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم، وامرأتان معهم، واجتمعوا في الشّعب ينتظرون رسول الله ﷺ، فأتاهم النبي ﷺ ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب وهو لا زال على دين قومه لكن أراد أن يستوثق لابن أخيه لأنه في مقام الأب للنبي ﷺ، ونلاحظ أن النبي ﷺ أحضر عمه العباس معه ليشهد البيعة مع أنه مشرك، لأنه يعرف رجالات المدينة، لكثرة سفره إليها، فأراد العباس أن يرى من هم الذين يبايعون ابن أخيه ويعرضون عليه الذهاب؟ هل هم من زعماء الأنصار ورجالاتهم الذين لكلامهم مصداقية، ولهم قوة ومنعة، فلما نظر العباس في وجوههم عرف رجالاتهم، وذوي أسنانهم، وأما الشباب فقال: «هؤلاء لا أعرفهم، هؤلاء أحداث»، وتولى العباس تعريف الأنصار للنبي ﷺ فكان يقول: «هذا سعد بن عبادة، هذا أسيد بن حضير، هذا فلان، هذا فلان»، ثم تكلم العباس فقال لهم: «يَا مَعشَر الخَزرَج، إنَّ محمّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ[2] فِي بَلَدِهِ، وَإِنَهَ قَدْ أَبَى إلا الاِنْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ،

(١) القَطا: طائر يُضرب به المثل في الحذر.

(٢) منَعة: أي قوة تمنع مَن يريده بسوء. يُنظر: «لسان العرب» لابن منظور (٨/ ٣٤٣).

وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ»[1].

ونلاحظ أن هذه لهجة استيثاق للنبي ﷺ وإعظام لمكانته، وليست لهجة تخلٍّ عنه.

فقالوا: «قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ الله، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ».

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَلَا عليهم القُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ، فَأَجَابوه، وَصَدَّقوه، وَآمَنوا بِهِ، وَرَضوا بِمَا قَالَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**تبايِعُوني عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالكَسَلِ، وَعَلَى النَّفْقَةِ فِي العُسْر وَاليُسْر، وَعَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي الله لَا يَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الجَنَّةُ**».

فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ، وَالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَنَمْنَعَكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ الله، فَنَحْنُ أَهْلُ الحُرُوبِ، وَأَهْلُ الحَلْقَةِ[2]، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ».

وقوله: «مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا» لأن الإزار هو الذي يستر عورة الإنسان، فأشد ما يحافظ عليه الإنسان هو ما يستر عورته. فإذا أراد العربي أن يعبر عن شدة الحماية قال «أحميك كما أحمي إزاري» وهذا تعبير عربي للمبالغة في الحماية.

---

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٤٤).

(٢) الحلْقة بسكون اللام: السلاح، وقيل: هي الدروع. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٤٢٧).

فهذا العرض من النبي ﷺ للأنصار وهذا شرطه عليهم، فما الذي ستشترطه الأنصار مقابل ذلك؟ هل اشترطوا الإمارة على البلاد؟ هل اشترطوا ولاية من الولايات؟ هل اشترطوا منصباً من المناصب؟ هل اشترطوا نصيباً من الأعطيات والأموال تصرف لهم؟، لقد قالوا لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، فما لنا بذلك إن نحن وفّينا؟». قال ﷺ: «**الجَنَّةُ**». فليس هناك أي عرض دنيوي، لا منصب، ولا مال، ولا أعطيات ولا هبات. «**لَكُمَ الجَنَّةُ**». موعود أخروي. فقالوا: «يا رسول الله، رضينا، رضينا، ابسط يديك نبايعك».

فاعترض القول -والبراء يكلم رسول الله ﷺ- أبو الهيثم بن التَيِّهَان، وكأنه تذكر أمراً مهماً، فقال: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا[1]، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنا؟».

أي أن بيننا وبين القبائل التي حولنا ومنهم اليهود حبالاً، أي: اتفاقيات ومعاهدات «وإنا قاطعوها» أي: ستتغير طريقة معاملتهم لنا، وسنتحمل جراء ذلك عداوتهم وقطع العلاقة معهم، فهل إذا أتيتنا وقمنا بما علينا من الحماية والنصرة ثم أظهرك الله ستبقى عندنا بعد ذلك؟، أم سترجع إلى بلدك مكة وتدعنا؟.

فضحك النبي ﷺ عجبا من يقين هذا الأنصاري الذي لم يشكّ أن النبي ﷺ سينتصر ويظهر، ولكنه قلق على بقاء النبي ﷺ عندهم بعد ذلك، فضحك ﷺ بأبي هو وأمي وأشرق محياه لهذا اليقين، ولهذا الشح بالنبي ﷺ والحرص عليه فقال: «**بَل الدَّمَ الدَّمَ، وَالهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي،**

(١) حِبَالًا: أي عهوداً ومواثيق. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣٣٢).

أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمتُمْ»[1]. فطابت نفوس الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتهيؤوا لبيعتهم، بغاية الاغتباط والسرور، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ**»[2]. فَتَمَّ انْتِخَابُهُمْ فِي الحَالِ، وَكَانُّوا تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَج، وَثَلَاثَةً مِنَ الأَوْسِ، ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة في المدينة، وليكونوا مرجعاً لغيرهم من قومهم.

ثم قال رسول الله ﷺ للنُّقباء: «**أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلَاءُ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي**»[3]. يَعْنِي المُسْلِمِينَ في مكة، قَالُوا: «نَعَمْ».

فكان ذلك أول مظهر تنظيمي في دولة الإسلام، إذ شكَّل بذلك ضبطاً هرمياً دقيقاً يضمن أن جميع أمورهم ومشكلاتهم ستصل إليه من خلال هؤلاء النقباء[4].

كما أن النبي ﷺ أشعرهم بذلك أنهم لم يعودوا غرباء، وأنّهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره، وليسوا بحاجة إلى أن يبعث إليهم أحداً من غيرهم[5].

فلما مدّوا أيديهم إلى النبي ﷺ ليبايعوه أمسك أسعد بن زرارة بيد النبي ﷺ وقال: «رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلّا ونحن نعلم أنه رسول الله حقّاً، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم،

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٢).
(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٣).
(٣) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٦).
(٤) «دروس من السيرة» لسميرة زايد (٥٧).
(٥) «دراسات في السيرة» لعماد الدين خليل (١٣٢).

وأن تعضكم السيوف، فإن كنتم تصبرون على السيوف إذا مسّتكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله عَزَّوَجَلَّ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم». وقد أراد أسعد بذلك أن يستوثق للنبي ﷺ ويؤكد البيعة بكلّ تبعاتها، فقالوا له: «يَا أَسْعَد، أمط عَنَّا يَدَكَ، فَوَالله لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا»[1].

وتقدمت الأيدي المباركة تصفق على يد النبي ﷺ الشريفة المباركة في أعظم بيعة وأغلظ ميثاق، وكانت أيديهم وهي تلتصق بيد النبي ﷺ تدير عجلة التاريخ، فتغير تاريخ البشرية، بعد هذه البيعة وتداعت وتتابعت أحداثه في مسار آخر جديد.

فلمّا تمت البيعة قال لهم ﷺ: «**ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**». وشعروا أن رسول الله ﷺ يحاذر عليهم أن يتسرب خبرهم إلى قريش، فقالوا له: «والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا». فأجابهم رسول الله ﷺ: «**لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**». فرجعوا إلى مبيتهم وقومهم نيام كما خرجوا من عندهم وهم نيامُ، فلم يشعر بهم أحد[2].

وممّا نلاحظه هنا حرص الأنصار على السّرّية وإحكام الخطّة، ومن ذلك أنهم لم يخبروا بها مرافقيهم من مشركي المدينة حتى لا يتسرب الخبر إلى قريش فتحول بينهم وبين إتمام اللقاء برسول الله ﷺ وبيعته، ومع ذلك تسرّب الخبر إلى قريش مجملاً من غير تفصيل، ولعل ذلك بسبب تداول الفكرة والتشاور بها في المدينة،

(١) «مسند أحمد» (١٤٤٥٦)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠١٢).

(٢) يُنظر: «مسند أحمد» (١٥٧٩٨)، و«مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٧ - ٤٤٨).

وعلاقة قريش التجارية بالمدينة متصلة، ولذلك فمن المتوقع أن يتسرب الخبر، ولذا جاءت قريش إلى منازل أهل يثرب في منى، يحذّرونهم من هذه الخطوة، وقالوا لهم: «إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم». فانبعث المشركون الذين أتَوا معهم ولم يعلموا بأمر البيعة يحلفون لهم أن ذلك لم يكن، ولم يقع من ذلك شيء، وهم صادقون في ذلك، لأنهم لم يعلموا به[(١)].

وسأل زعماء قريش عبد الله بن أبي بن سلول لزعامته ومكانته في قومه، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني، وأما المسلمون الذين حضروا البيعة فصمتوا ولم يتكلموا، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض[(٢)].

فلمّا أراد جمع قريش أن ينصرفوا رأى كعب بن مالك حذاءَ الحارث بن هشام جديداً، فأراد أن يشارك القوم في الحديث، فقال لعبد الله بن حرام: يا أبا جابر، أنت من سادتنا، وكهل من كهولنا، فهلّا اتخذت نعلاً كنعل هذا الفتى من قريش، فأخذت نشوة الكرم الحارثَ بن هشام فرمى بهما إليه[(٣)]، وكانت هذه حيلة ذكية لصرف مسار الحديث، والانتقال إلى شأن آخر يختم به اللقاء.

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨).
(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

ولم تتأكد قريش من الخبر إلا بعد أن قفل الأنصار راجعين، فخرجوا في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر قريبًا من مكة، والمنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبا، فأما المنذر فأعجز القوم، فلم يلحقوه، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير[1].

قال سعد: «فو الله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى، والله، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم وللحارث بن حرب تجارتهم، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، قالا: ومن هو؟ قال سعد بن عبادة، قالا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجّارنا، ويمنعنا أن نُظلم ببلده». فجاءا فخلصا سعدا من أيديهم، فانطلق وكان الرجل الذي أوى إليه، أبا البختري بن هشام[2].

ونلاحظ أن الهجرة كانت بطلب من الأنصار، ولم تكن بطلب من النبي ﷺ، وأنه ﷺ لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار وإنما أخر ذلك حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًا، وأن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم[3].

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٩).
(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).
(٣) «السيرة النبوية» د. علي الصلابي (١/ ٣٥٠).

وعندما نراجع تراجم أصحاب بيعة العقبة الثانية من الأنصار نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استُشهد ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، وأن قرابة السبعين منهم كانوا مع النبي ﷺ في بدر، لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله، فمنهم من قضى نحبه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيام دولة الإسلام، وشارك في أحداثها الجسام[1].

مسجد البيعة، وهو المكان الذي تمت فيه بيعة العقبة الثانية، وكان في شعب داخل منى، ولم يبرز إلَّا بعد أن أزيلت الجبال حوله.

(١) «السيرة النبوية» د. علي الصلابي (٢/ ١٤٠).

نفير المهاجرين

بعد أن تمت هذه البيعة ورجع الأنصار إلى المدينة أمر رسول الله ﷺ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا**»[(١)]. فبدأ الصحابة رضوان الله عليهم بالهجرة، وصاروا يتفارطون من مكة إلى المدينة أرسالا في دفعات متوالية وسريعة، وخلال شهرين كان كل مَنْ يستطيع الهجرة قد غادر إلى المدينة، ورجع عامة مَن كان هاجر إلى الحبشة وأصبحت بيوت بعض العشائر خلاء موحشة، لا سكن فيها ولا أنيس، فغُلِّقَتْ دور بني جحشٍ حيث هاجروا كلهم، فمرَّ بها عتبةُ بنُ ربيعةَ، والعباسُ بنُ عبدِ المطلبِ، وأبو جهلِ بنُ هشامٍ، وهمْ مصعدونَ إلى أعلى مكةَ، فنظرَ إليها عتبةُ بنُ ربيعةَ تخفقُ أبوابها يبابا[(٢)]، ليسَ فيها ساكنٌ، فلما رآها كذلكَ تنفسَ الصعداءَ[(٣)]، ثمَّ قالَ:

كلُّ دارٍ وإنْ طالتْ سلامتها يَوْمًا ... سَتُدْرِكُهَا النَّكْبَاءُ وَالحَوْبُ[(٤)]

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٦٨).

(٢) اليَبَابُ: الخَالِي لا شيءَ فيه. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٨٠٥).

(٣) تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ: النَّفَسُ إلى فَوْقٍ مَمْدُودٍ، وقِيلَ النَّفَسُ بتَوَجُّعٍ. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٢٥٣).

(٤) الحَوْبُ: التَّوَجُّعُ. يُنظر: «لسان العرب» لابن منظور (١/ ٣٣٨).

ثمَّ قالَ عتبةُ: «أصبحتْ دارُ بني جحشٍ خلاءَ منْ أهلها»، فقالَ أبو جهلٍ: «وما تبكي عليهِ منْ قُلٍّ بنِ قُلٍّ![1]»، ثمَّ قالَ للعباسِ: «هذا منْ عملِ ابنِ أخيكَ هذا، فرق جماعتنا، وشتّتَ أمرنا، وقطعَ بيننا»[2].

وأبو جهلٍ بهذا الكلامِ تبرزُ فيهِ طبائعُ الطغاةِ كاملةً، فهمْ يجرمونَ ويرمونَ الوزرَ على أكتافِ غيرهمْ، ويقهرونَ المستضعفينَ، فإذا أبوا الاستكانةَ، فإباؤهمْ علةُ المشكلاتِ، ومصدرُ القلاقلِ[3].

وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟». قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه بالخروج إلى المدينة[4].

وقبل أن نذكر خبر هجرة النبي ﷺ، لابد أن نقف عند مسألة ينبغي أن يُصحح فيها التصور، فإن بعض الكتابات التي كَتبت عن السيرة تصوِّر هجرة الصحابة من مكة على أنها حالات تسلل في الظلام، وأنهم كانوا يهاجرون بسرية تامّة، وهذا جزء من إسقاط الواقع الحاضر على واقع مكة، وكأن مكة دولة بوليسية،

(١) القُلُّ مِنَ الرِّجال: القليل الهين. يُنظر: «لسان العرب» (١١/ ٥٦٤).
(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٧٠-٤٧١).
(٣) «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي (١٦٧).
(٤) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣٩٠٥).

فيها جهاز استخبارات، وأمن دولة، وحرس حدود، وفيها حكومة مركزية مُحكمةٌ القبضة على الشعب، ولم يكن الوضع كذلك، فمكة شعاب وفِجاج مُشرعة، ومن أراد أن يخرج خرج، والمسلمون تحميهم عشائرهم، ولذلك نجد في أخبار الهجرة من مكة أنها كانت تتم بطريقة طوعية اختيارية، فإذا مُنع أحد فإن مَن يمنعه هم أقاربه وأهله، إذا كان لهم سطوة عليه، ولِذا خرج بعض الصحابة سرّاً، حذراً من قرابتهم أن يمنعوهم حيث كان لهم سطوة عليهم.

والظاهر أن سبب تراخي قريش مع هؤلاء المهاجرين وعدم تعرضها لهم أنها ظنَّت أنّ هجرة الصحابة إلى المدينة مثل هجرتهم إلى الحبشة فكما ذهبوا إلى الحبشة ورجعوا، فسيذهبون إلى المدينة ثم يرجعون، وزاد في طمأنينتهم أن النبي ﷺ وأبا بكر وعلي بن أبي طالب لم يهاجروا، فبقاء النبي في مكة أعطى أمانًا لقريش، ولذلك فإنّ قريشًا لم تستنفر وتتخذْ تدابيرها إلا بعد أن علمت أن النبي ﷺ سيهاجر، هنا شعرت أنها أمام مواجهة جادّة وتطوّر خطير، وحينها استنفرت وتآمرت على النبي ﷺ بالمؤامرة التي ذكرها القرآن: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وحرصت ألا يذهب النبي كما ذهب أصحابه ولا يلحق بهم.

ومن أشهر قصص الهجرة قصة أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَل لي بعيرَه ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال من بني المغيرة، وهم أهلها، قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها،

أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنت أخرج كل صباح، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريبا منها حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها!، فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟. فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: هل معك من أحد؟. قلت: لا. قال: والله لا أدعك تذهبين وحدك. فأخذ خطام البعير، فانطلق معها، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطّ كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه الرحل، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فَرَحَله[1]، ثم استأخر عني،

(١) أي: وضع الرحل على البعير، والرحل للبعير كالسَّرج للفرس. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٠٩).

فقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة بها نازلا- فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعا إلى مكة».

فكانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

لقد كان عثمان يومئذ كافرا؛ لأنه لم يسلم إلا بعد الحديبية، وهذا موقف يشهد على نفاسة معدن العرب، وفضائلهم في الجاهلية، ولا سيما خلق المروءة والنجدة، وحماية الضعيف، فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه[2].

وهكذا نجد أن أبا سلمة تَحمَّل بزوجته أم سلمة وبابنه وتوجه إلى المدينة، ولم يمنعه بنو المغيرة، ولكن منعوا زوجته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها ابنتهم، وبنو المغيرة مِن أقوى عشائر مكة، ومنهم أبو جهل والوليد بن المغيرة، ومع ذلك ما استطاعوا أن يمنعوا أبا سلمة، إنما منعوا ابنتهم، وهذا يبين لك أن الهجرة ما كانت تسرُّبًا سريًّا، ولكنها هجرة للأفراد.

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: «السيرة النبوية» د. محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٤٦١).

وعن عمر بن الخطاب قال: «اتَّعدتُ[1] لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار[2]، فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبِس فليمض صاحباه.

فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام»[3].

وكذلك ما وقع لصهيب الرومي في هجرته، فقد أقبل مهاجراً إلى النبي ﷺ فاتبعه نفر من قريش ونزل عن راحلته، ونثر السهام من كنانته ثم قال: «يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلا، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم»، فقالوا: «لا حاجة لنا بك، ولكنك أتيتنا فقيراً لا مال لك، وتريد أن تخرج بمالك الذي اغتنيت به عندنا». فقال: «إن شئتم دللتكم على مالي وقُنْيَتي[4] بمكة وخليتم سبيلي». قالوا: «نعم». ففعل، فلما قدم على النبي ﷺ المدينة قبل أن ينتقل من قباء قال ﷺ: «**رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى**». ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. فقال صهيب: «يا رسول الله، ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»[5].

---

(١) أي: تواعدت.

(٢) أضاة بنى غفار: غدير على عشرة أميال من مكة.

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٤).

(٤) أي: ما أقتنيه وأملكه من متاع.

(٥) يُنظر: «المستدرك» للحاكم (٥٧٠٠، ٥٧٠٦، ٥٧٠٧)، و«طبقات ابن سعد» (٣/ ٢٢٨)، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٤٧٩)، و«بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» للهيثمي (٦٧٩).

ومع ذلك فقد احتُبِس عددٌ من المسلمين في مكة، ومنعهم أقاربهم من الهجرة، فكان رسول الله ﷺ يدعو لهم بأسمائهم إذا رفع رأسه من الركوع الأخير في صلاة الفجر فيقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ**»[1]. وقد استجاب الله دعاءه لهم، فأفلتوا من حبوسهم ولحقوا بالنبي ﷺ مع إخوانهم المهاجرين في المدينة.

مسجد أبي بكر الصديق قبل إزالته في مكان بيته الذي خرج النبي ﷺ وأبو بكر من خوخته إلى غار ثور.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠٠٦)، و«صحيح مسلم» (٦٧٥).

الإعداد للهجرة

عندما نروي قصة الهجرة النبوية فإننا نرويها عن شهود عيان، عايشوا الحدث وكانوا جزءاً من تداعياته، ومنهم أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي شهدت تجهيزات الرحلة وخطواتها الأولى، والصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان صاحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مسيره، وسراقة بن مالك الذي اتبعهم في طريقهم الذي سلكوه، وكان شاهداً على أخطر مراحل الرحلة.

أما خبر الإعداد للهجرة، وبداية انطلاقتها فقد شهدتها أمنا عائشة ووعتها وروتها، وكانت حين الهجرة زوجة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد عقد عليها، ولذلك روت لنا بدقة ووضوح طلائع الهجرة وإعداداتها والخطوات الأولى في مسيرها.

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان بالإسلام، وما كان يأتي علينا يوم إلا ويأتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بكرة أو عشيا». فهو يأتي في الصباح أو العصر، لأن هذا الوقت هو وقت الحركة في مكة، لشدة الحرارة وقت الظهيرة، ويبدو أن هذه اللقاءات اليومية المكثفة كانت في تدبير أمر الهجرة حيث أُمر المسلمون بالهجرة إلى المدينة، وخلال هذين الشهرين تفارط الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أرسالا إلى المدينة.

ولم يتضح لقريش هل سيهاجر النبي ﷺ معهم؟ أم لا؟ فقد أرسل النبي ﷺ أصحابه وبقي في مكة مِثله مِثل الربان الشريف الذي إذا أوشكت أن تغرق سفينته جعل همه كيف ينقذ جميع ركابها، ثم يخرج من السفينة بعدهم، وهكذا تأخر النبي ﷺ يحمي أتباعه، ويستقبل الخطر بصدره[1]، وبقي ﷺ ينتظر إذنَ الله عَزَّوَجَلَّ له بالهجرة، وكان بقاء أبي بكر من أسباب طمأنة قريش أيضاً، لما تعلمه من مكانته عند رسول الله ﷺ، فاشترى أبو بكر راحلتين، وجعل يعلفهما ورق السمُر، وهو أطيب ما تطعم به الإبل في مكة لأن مكة شحيحة النبات، فيذهبون إلى شجر السمر ويحتّون ورقه، ويطعمونه إبلهم حتى تشتد لهذا السفر.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فلما كان ذات يوم أتانا رسول الله ﷺ متقنعا» يعني متلثماً قد غطى وجهه، وكان ذلك في نحر الظهيرة، يعني ساعة الزوال، حين تبلغ الشمس منتهاها في الارتفاع، وهذا قرابة الساعة الثانية عشر والنصف ظهراً بتوقيت مكة المكرمة، وهذه الساعة هي أشد ساعات الحرارة في مكة، لا يَمشي فيها أحدٌ لشدة الحر، والناس كلهم مكتنون في بيوتهم، فاختار النبي ﷺ ساعة السكون والغفلة ليخرج فيها متقنعاً حتى لا يراه ولا يعرفه أحد، حتى وصل إلى بيت أبي بكر، فجاء الخبر إلى أبي بكر أن رسول الله ﷺ قد أتى متقنّعاً في ساعة لم يكن يأتي فيها، فقال أبو بكر: «فداه أبي وأمي، والله ما جاء به هذه الساعة إلا أمر». يعني إلا أمر طارئ مهم، فليس من عادة الناس أن يأتي أحد في هذه الساعة، فاستأذن رسول الله ﷺ، فأذن له، فدخل وتأخر له أبو بكر عن سريره،

(١) «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي (١٥).

فجلس عليه رسول الله ﷺ، وكان عند أبي بكر بنته عائشة وبنته أسماء، فقال له النبي ﷺ: «**أَخْرِجْ مَنْ عَنْدَكَ**». قال «يا رسول الله إنما هم أهلك» -يعني زوجتك عائشة وابنتي أسماء-، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**فَإِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ وَالهِجْرَةِ**»، فقال أبو بكر فورا: «الصحبة يا رسول الله؟» قال ﷺ: «**الصُّحْبَةَ**». فانفرط زمام العاطفة في نفس أبي بكر رضي الله عنه وأجهش بالبكاء من الفرح، قالت عائشة: «ما كنت أعلم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي لما قال له النبي ﷺ «**نَعَمْ، الصُّحْبَةَ**». لقد ادخر أبو بكر نفسه لصحبة النبي ﷺ، والآن ها هو النبي ﷺ يختاره من بين كل الناس ليكون رفيقه في طريقه، والسائر معه في هجرته، فحقّ له أن يفرح، وأن يبكي فرحًا، ثم قال أبو بكر: «يا رسول الله، عندي ناقتان، قد كنت أعددتهما للخروج، فخذ إحدى راحلتَيَّ هاتين»، فقال رسول الله ﷺ: «**بِالثَّمَنِ**». فأعطى النبيَّ إحداهما، وهي التي تسمّى الجدعاء. قالت عائشة: «فجهزناهما أسرع الجَهاز». فأتوا بسُفرة[1]، فوضعوا فيها الطعام، وأخذوا قربة فملؤوها بالماء، وشقت أسماء بنت أبي بكر نطاقها، وهو الحزام الذي تربطه على وسطها، فشقته بنصفين، أحدهما ردته نطاقا لها والثاني شقته بنصفين أيضًا، ربطت السفرة بنصف وربطت قربة الماء بنصف، فسميت أسماء من ذلك اليوم «ذات النطاقين».

ثم خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من خوخة في بيت أبي بكر، وهي باب صغير يكون خلف البيت هو باب الخدمات، يدخل منه الخدم، وتُدخل منه حاجات البيت، وليس الباب الرئيسي الذي يدخل منه الضيوف، فكان هذا الباب

(١) السفرة: هي الوعاء الذي يوضع فيه زاد المسافر.

في ظهر البيت هو المناسب لخروج النبي ﷺ وأبي بكر حتى لا يراهما أحد، وكان هذا الخروج في الظهيرة واشتداد الحر، ثم توجه النبي ﷺ وأبو بكر باتجاه الجنوب، عكس اتجاه المدينة شمالاً، وهذا أسلوب نبوي في تضليل العدو، فقد كان ﷺ إذا أراد أن يغزو غزوة تظاهر بأنه يريد غيرها. فيذهب في غير الاتجاه المتوقع، فالمتوقع الآن إذا فُقد النبي أنه ذهب شمالاً في اتجاه المدينة، لكن النبي اتجه جنوبا، وسار هو وأبو بكر إلى جبل اسمه جبل ثور يبعد عن مكة قرابة (٤ كم)، وفي أعلاه غار يرتفع قرابة (٧٠٠م) عن سطح الأرض، والطريق إليه في غاية المشقّة، والصعود إليه بغاية الجهد، وهو غار واسع، ولكنه ضيق المدخل، ولذلك يقارن بينه وبين غار حراء، فهو أعلى من غار حراء وأوسع من غار حراء، يتسع لدخول اثنين، أما غار حراء فلا يتسع إلا لشخص واحد جالسـًا.

فصعد النبي وأبو بكر إلى هذا الغار، ووُزّعت مهام رعاية النبي ﷺ على آل أبي بكر، فكان عامر بن فهيرة -وهو مولى أبي بكر- يرعى غنم أبي بكر فيأتي بها عند الجبل فيحلب لهم من حليبها، ويذبح لهم منها ليأكلوا، ثم يعَفِّي بآثار الغنم على طريقهم.

وكان عبد الله بن أبي بكر والذي تصفه أخته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه «فتى ثقفٌ لقفٌ». أي: فتى نبيه، يُحسِن تحسس الأخبار والتقاط الكلام، فكان هو جهاز الاستخبارات خلال ثلاثة أيام، يوافي النبي ﷺ وأبا بكر بما تدبّره قريش، وما يجري في مكة، وما يتحدث به الناس، فتأتيهم الأخبار وهما في الغار، وعامر بن فهيرة يُجري الغنم حتى تعفي على طريق عبد الله بن أبي بكر، فلا يُعرف أثر سيره إلى الغار، فيُكتشف أمرهما.

وأبقى النبي ﷺ عليّاً في مكة حتى يرد الودائع والأمانات إلى أصحابها بعد أن يهاجر الرسول ﷺ، لأن الرسول لو ردّها وهو في مكة لتوقّعت قريش أنه فعل ذلك لأنه سيغادرهم وكانتْ قريشٌ رغمَ عدائها لرسولِ الله ﷺ عظيمةَ الثقةِ بأمانتهِ، وصدقهِ، فليسَ بمكةَ أحدٌ عندهُ شيءٌ يخشى عليهِ إلا وضعهُ عندَ رسولِ الله ﷺ لثقتهِ بهِ، فكانَ عندَ رسولِ الله ﷺ الشيءُ الكثيرُ منْ هذهِ لودائع، فأمرَ عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنْ يتخلفَ بمكةَ حتى يؤديها عنهُ[1].

وصدقَ اللهُ العظيمُ إذْ يقولُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

(١) يُنظر: «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٥).

أيام الغار

إن هجرة الإنسان من بلده ليست خيارا سهلاً، ولذلك قرن الله عَزَّوَجَلَّ الإخراج من البلد بالقتل فقال لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وأصعب ما تكون الهجرة في حال التقدم في السن، فالكهل الذي استقر في البلد التي نشأ فيها يكون قرار الهجرة لديه صعبـًا جداً، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عندما اتخذ قرار الهجرة كان في الثالثة والخمسين من عمره الشريف المبارك، ومع ذلك اتخذ هذا القرار الصعب وإذا أردت أن تتخيل صعوبته فانظر إلى إنسان في هذا العمر واسأله عن مغادرة بلده، لقد كنا في طفولتنا نذكر كبار السن كيف كانوا يقاومون أبناءهم إذا أرادوا الانتقال بهم من حي إلى حي، وأذكر العبارة التي كانوا يرددونها لأبنائهم إذا حاولوا معهم ذلك فيقول كل منهم: «إذا خرجت جنازتي للمقبرة فاخرجوا أنتم من البيت». فاتخاذ قرار الهجرة قرار صعب لمن تعمّقت جذوره في بلده وتمدّدت علاقاته فيها، لكنه كان سهلا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأنه في سبيل بلاغ رسالته ودعوته، ولذلك فلا تتوقع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خرج من مكة وكأنه خرج في نزهة، كلّا لقد خرج بلَوعة وأسى،

ولذلك عندما عاد ﷺ إليها بعد سبع سنوات من الهجرة في عمرة القضاء ثمّ خرج منها وقف في الحزوَرة -وهي أكمة تُشرف على الحرم- ثم التفت إلى مكة وقال: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[1]. فبعد سبع سنوات في المدينة يودع مكة بهذه اللوعة وبهذا الشوق، فكيف كانت لوعته حينما خرج منها؟! وكيف كانت نظرته حين التفت إليها؟! لنعلم أي تضحية ضحاها النبي ﷺ في سبيل بلاغ دينه ورسالته، وأن هذا الدين الذي أتمتع أنا وإياك بنعيمه الآن إنما وصلنا بصبر هذا النبي وتضحيته حتى إنه ترك بلده، وترك فيها داره وقرابته وذكرياته، وكذلك أصحابه تركوا أموالهم وبيوتهم وقرابتهم، وصارت الرياح تصفق ببيوتهم، كل ذلك من أجل هذا الدين ومن أجل هذه الرسالة التي بلغتنا وقامت بها الحجة علينا، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي، ما أعظم بلاغه وأداءه لرسالته.

بقي النبي ﷺ وأبو بكر في غار ثور ثلاثة أيام، وغياب النبي ﷺ عن مكة سيتضح من أول يوم، لأن حضوره كان واضحًا، وبيته ظاهر قريب من الحرم وحضوره مما يلفت الأنظار، فإذا غاب فترة يسيرة فُقد، ولذلك فقدته قريش في أول يوم، وبدأت تتساءل: هل لحق محمد بأصحابه؟ وصاروا يتشاورون في أمره، والذي يظهر أن هذا هو الوقت الذي تآمرت فيه قريش على النبي ﷺ، وما الذي ينبغي عليهم فعله إذْ لا زال قريبًا منهم، وهذا التشاور هو الذي أخبر الله عنه عَزَّوَجَلَّ في كتابه إذ يقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) «مسند أحمد» (١٨٧١٧)، و«جامع الترمذي» (٣٩٢٥).

فاتفقوا على خيارات ثلاث: إما أنْ نمسكه ونسجنه «يُثْبِتُوكَ»، أو نقتله، أو نخرجه لمكان نحن نختاره، يعزله عن أتباعه وأنصاره، لأن أشق شيء على قريش أن يذهب النبي ﷺ إلى المدينة، ويجتمع حوله أنصاره، ويقيم فيها دولته، ولذلك استنفرت كامل طاقتها للبحث عن النبي ﷺ.

فما هي الإجراءات التي اتخذتها قريش للظفر بالنبي ﷺ؟

أولاً: استجلبت قصاص الأثر، وهم أناس معروفون بهذه المهارة، ومنهم بنو مدلج، يتبعون آثار الأقدام في الأرض، ويميّزون بين الناس بآثار أقدامهم[1]، فاستعانت قريش بقافة الأثر ليتبعوا أثر النبي ﷺ وأبا بكر، وكان ممن استعانت بهم قريش من قافة بني مدلج سراقة بن مالك.

ثانيًا: أعلنت عن جائزة قدرها مئتان من الإبل، هي دية كل منهما، لمن يأسرهما أو يقتلهما[2]، وهذه جائزة ضخمة جدّاً، يكفي بعضها لإسالة لُعاب الأعراب واستثارة طمعهم.

ثالثًا: أرسلت إلى القبائل التي في طريق المدينة يستنفرونهم: إذا مرّ بكم محمد وصاحبه فاظفروا بهما، فلكم بذلك مئتان من الإبل، وبهذه الطريقة جنّدت هذه القبائل وصارت أجهزة بحث وتحرٍّ لقريش في الطريق.

(١) وإلى وقت قريب كانت أجهزة الأمن في السعودية تستعين بالقافة في تتبع المجرمين، ويُعرف بذلك رجال قبيلة بني مرة، ولهم فيه براعة هائلة، وقلّما يفلت المجرم إذا تعقبه قائف الأثر.

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام(١/ ٤٨٦).

وانطلق رجالات من قريش مع القافة، فصاروا يتبعون الأثر، فوصلوا إلى الجبل، ثم قالوا: «هنا انقطع الأثر»[1]. لأن عامر بن فهيرة كان يسير بالغنم حول الجبل حتى يعفي الأثر، ثم صعدوا الجبل لأنهم يعرفون أن في أعلى الجبل غاراً، ووصلوا إلى فمِ الغارِ، ولمْ يبقَ بينهمْ وبينَ العثورِ على الرسولِ ﷺ وصاحبِهِ إلا أنْ ينظرَ أحدهمْ إلى مدخل الغار تحتَ قدميهِ.

وكانتْ أدقَّ لحظةٍ مرتْ بها الإنسانيةُ في رحلتها الطويلةِ، وكانتْ لحظةً حاسمةً، فإما امتدادُ شقاءٍ لا نهايةَ لهُ، وإما افتتاحُ سعادةٍ لا آخرَ لها، وقدْ حبستِ الإنسانيةُ أنفاسها، ووقفتْ خاشعةً حينَ وصلَ الباحثونَ إلى فم الغارِ، ولمْ يبقَ بينهمْ وبينَ العثورِ على منشودهمْ إلا أنْ ينظرَ أحدهمْ إلى تحتِ قدميهِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حالَ بينهمْ وبينَ ذلكَ[2]، وسمع أبو بكر أصواتهم ونظر إلى أقدامهم، ففزع خوفا على رسول الله ﷺ، وقال: «يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا»، أما نبيك ﷺ فكان في غاية السكينة والاطمئنان، فقال ﷺ: «**يا أَبَا بَكْرٍ، لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، يا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟**»[3]. وأنزل الله سكينته عليهما، وأيدهما بمدد من عنده، ووثقت هذه اللحظة التاريخية في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٥/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي (١٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦١٥، ٤٦٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٠٠٩، ٢٣٨١).

وهذه السكينة النفسية هي من الثقة واليقين بأمر الله، فإنه إنما هاجر بأمر الله، ولا يمكن أن يأمره الله ثم يخذله أو يُسلمه.

وأما أولئك الكفار فطافوا حول الغار، واختلط عليهم الأمر، وعمي عليهم الأثر، ولم يفكروا أن يدخلوا الغار، واستبعدوا أن يكونوا وصلوا إلى هذا المكان، فنزلوا عنه بعد أن وصلوا إليه، وهذا من حماية الله لهم، ومعيته معهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وإلَّا فما الذي يمنعهم أن يدخلوا الغار وقد وقفوا على بابه، ولكن الله بقدرته صرفهم عنه.

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحقّ منهزمِ

وهكذا فشلت أولى محاولات اللحاق بالنبي ﷺ واعتراض طريق هجرته.

لكن بقي الاستنفار الذي على الطريق. فالطريق إلى المدينة عليه الرصد، والآبار وموارد المياه حولها الأعراب ينتظرون أن يأتي هذا الذي تطلبه قريش، ولِذا اتفق أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع رجل اسمه عبد الله بن أريقط الدِّيلي، وهو رجل مشرك على دين قومه، يوصف بأنه كان هاديا خِرِّيتًا[1]، فاستأجره ليكون دليلا لهم في الطريق، فهؤلاء الأعراب لديهم مهارة ومعرفة بجغرافية الطرق، ويتنقلون في الصحراء كما يتنقل الإنسان داخل بيته، وهذا الرجل يراد منه أن يوصلهم إلى المدينة من غير الطريق المعتاد، وإلا فالطريق المعتاد لا يحتاج إلى دليل، والصحابة الذين هاجروا إلى المدينة لم يأخذ أحد منهم دليلاً معه،

(١) الخرت: هو ثقب الإبرة، والخِرِّيت: وصف للذي يستطيع الوصول للمكان الخفي في الصحراء لمعرفته بدروبها وعلاماتها.

لأنهم يسيرون في الطريق السالكة، أما النبي ﷺ وأبو بكر فلا بد أن يسلكا طريقا آخر غير مطروق، حتى يتجنبوا الرصد الذي يمكن أن يقطعوا الطريق عليهم، ويُسلموهم إلى قريش، ولذلك استأجر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الرجل ليسلك بهم طريقا أخرى آمنة.

أمّا الشيء العجيب فهو أن هذا الرجل يعيش قريباً من مكة، وجاءهم بعد ثلاثة أيام، وخلال الأيام الثلاثة كان يسمع قريشاً تقول: «من أتى بمحمد وصاحبه فسيأخذ مئتين من الإبل». فهل فكر هذا الأعرابي وقال: بدلاً من أن أذهب إلى المدينة وآخذ في النهاية الأجرة التي اتفقت عليها مع أبي بكر. ولا أحسبها تزيد على قيمة بعيرين، فقد سألت كبار السن عن الأجرة التي يأخذها قديما من قطع هذه المسافة، فإذا هي لا تزيد عن قيمة بعير واحد، فهل قال: أليس أريح وأربح لي أني أذهب إلى قريش وأقول لهم: هذا محمد في الغار، استلموه وأعطوني مئتين من الإبل؟ فما الذي منعه أن يفكر بتلك الطريقة؟ والجواب: إنّها مروءات العرب، تمنعه أن يواعد ويعاقِد ثم يغدر، فهذا خزي الأبد عندهم، وهذا يبين لك حكمة الله في بعثة النبي ﷺ فيهم، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فجعل الله الرسالة في هذه البيئة العربية التي لها قِيَمها، ولها أعرافها وأخلاقها الرائعة الكريمة.

وبعد أيام ثلاثة في الغار أتى إليهم ابن أريقط بالراحلتين، فخرجا من الغار ليلا وكان هذا في ليلة الاثنين الرابع من شهر ربيع الأول، وتوجه النبي ﷺ هو وأبو بكر وعبدالله بن أريقط وعامر بن فهيرة ومعهم راحلتان يتعاقبون عليهما.

وسلك بهم عبد الله بن أريقط طريق الساحل، وهو طريق يخرج من أسفل مكة ويحاذي البحر، حتى يبعدهم عن الطريق الذي يخشى أن يكون الرصد عليه.

بقي أن نتساءل هنا: كيف جرأت قريش أن تهمّ بقتل النبي ﷺ من غير خوف من عشيرته؟

الجواب: أن النبي ﷺ عندما يكون في مكة فهو في حماية عشيرته، أمّا عندما علمت قريش أنه سيتحول إلى المدينة ويصبح هو وأتباعه فئة مستقلة مستوطنة في المدينة في حال عداوة معها أَعلنت كلها الحرب، ولذلك بدأ التهديد بالقتل عندما علمت قريش أنه هاجر، وسيكون هو وأصحابه الذين هاجروا مع الأوس والخزرج دولة واحدة، وقريش كانت تقول: «ما حي من العرب أبغض إلينا أن نقاتله من الخزرج»[1]؛ لأن بينهم وبين قريش علاقات تجارية قبل ذلك، ولكل زعيم في مكة صديق في المدينة ينزل عنده إذا ذهب إلى الشام، فكانت المدينة هي محطة الاستراحة في رحلة الشام لقريش ذهاباً وإياباً، فإذا تحولت العلاقة إلى عداوة، انقطع الطريق إلى الشام، ولذلك لا تريد قريش أن يذهب الرسول إلى هناك، فصار التعامل مع النبي ﷺ كعدو لقريش كلها، ولذلك أعلنت عزمها على قتله أو أسره، كما خرجوا جميعا لقتاله في بدر، لأنه صار عدوّاً لهم جميعا، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) يُنظر: «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨).

الطريق إلى غار ثور

جبل ثور، وفي أعلاه غار ثور

غار ثور وكان مدخله ضيقًا ولكن وسع بعد ذلك لكثرة الزوار

في طريق الهجرة

أما مسيرهما في الطريق إلى المدينة فقد خرجا من الغار ليلة الاثنين الرابع من شهر ربيع الأول، وقد قصّ علينا أبو بكر خبر خروجهما، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف بداية انطلاقهما: «أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَمِنَ الغَدِ، حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ وَخَلاَ الطَّرِيقُ لاَ يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ، فَرأينا صَخْرَةً طَوِيلَةً لَهَا ظِلٌّ، لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ، وَسَوَّيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْهِ، وَبَسَطْتُ فِيهِ فَرْوَةً، وَقُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ الله، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ». أي: أتفقد ما حولنا وأطمئن على الطريق، خوفًا من الطلب الذين يتبعونهم، «فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ، يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلاَمُ، فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ، قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالقَذَى، فَحَلَبَ لنا لبنًا فِي الإناء، وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَرْتَوِي مِنْهَا، يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ، فَأَتَيْتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ، فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ، فَصَبَبْتُ مِنَ المَاءِ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ». وهذا من ذوق أبي بكر وشدة عنايته بما سيقدّمه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حيث اعتنى بنظافته قبل أن يحلبه، ثم اعتنى ببرودته قبل أن يقدّمه،

قال أبو بكر: «فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ الله، فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟**» قُلْتُ: بَلَى. فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ»[1].

ومرّا في طريقهما إلى المدينة، بوادي قُدَيد وكانت تنزله قبيلة بني مدلج، فرآهم أحدهم من بعيد، فجاء إلى مجلس القوم وقال: إني رأيت بطريق الساحل من بعيد أسودة - أي شخوصاً- أراهم من بعيد ولا أتبينهم، أظنهم الذين تطلُبهم قريش. وكأنما أتى هذا الرجل إلى قومه يستنفرهم للذهاب إلى هؤلاء لتطويقهم والظفر بهم وتسليمهم إلى قريش، وكان في المجلس سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، فلما سمع الكلام أدركه الطمع، وحرص أن يدركهم هو ويظفر بجائزتهم وحده، فرد على هذا الرجل وقال له: «كلا ليسوا هم، إنما هما فلان وفلان خرجا تحت أنظارنا» وحتى يبعد الظن جلس يتحدث مع قومه، حتى يُطمئنهم، ثم قام وكأنه يقوم لبعض شأنه، فدخل بيته، وقال لجاريته: «خذي فرسي واذهبي بها خلف الأكمة، وانتظريني هناك» ثم أخذ رمحه وخفض رأسه حتى صار يخط بأسفله الأرض، حتى لا يراه أحد، ثم تسلل من خلف البيوت، وذهب إلى الأكمة، وركب فرسه، ثم انطلق بها تعدو به عَدْوا سريعا قاصداً الشخوص التي وصفت له، وأرض هذا الوادي طينية صلبة، ولذلك تعدو فيها الخيل بغاية السرعة، وما زال يعدو مسرعاً حتى أدركهم، قال سراقة: «فاقتربت منهم، فكان أبو بكر يكثر الالتفات والنبي ﷺ لا يلتفت، فاقتربت منهم حتى سمعت قراءة النبي ﷺ».

(١) «صحيح البخاري» (٣٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٠٩).

يا لله! النبيُّ في هذه الشدة وهذا الفزع وأبو بكر معه يلتفت، ويخبره بمَن وراءهم فيقول: «أُتينا يا رسول الله». فيقول النبي ﷺ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. ثم يستمر في قراءته، أيُّ سكينة نفسية كانت تعمر وجدان النبي ﷺ وطمأنينة بصدق موعود الله له، مع أن الفارس قد اقترب منهم؟!، وإذا كان سراقة يسمع قراءة النبي، فإن النبي ﷺ كان يسمع وَقع حوافر فرسه، ومع ذلك كان ﷺ في غاية السكينة، لم يلتفت خلفه ولم يقطع قراءته، لقد سار بأمر الله، ولن يتخلى الله عنه، فلما اقترب منهم دعا عليه النبي ﷺ فقال: «**اللهُمَّ اكْفِنَاهُ بِمَا شِئْتَ، اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ**»[1]، فأتى المدد الإلهي سريعًا بمعجزة مبهرة، فإذا هذه الأرض الصلبة تذوب تحت حوافر الفرس، قال سراقة: «فساخت[2] قدما فرسي وعثَرَتْ فقمت وأنهضتها». وهذه كانت إشارة لسراقة، معناها: «ارجع». لكنه لم يستقبل هذه الإشارة، وإنما أنهض فرسه وركبها وغلبه طمعه وتبعهم مرة ثانية. فاقترب منهم حتى سمع قراءة النبي ﷺ، فدعا عليه النبي ﷺ، وإذا الأرض الصلبة تنهار تحت قوائم فرسه وتسيل كأنها ماء، فغاصت قوائم فرسه، حتى ارتطم بطنها في الأرض، وكانت مفاجأة مذهلة، كيف امتصت هذه الأرض الصلبة قوائم الفرس حتى هبطت وارتطم بطنها في الأرض؟ فنزل سراقة وهو مندهش لهذا الأمر، وجعل يعالج الفرس ويحاول إخراجها، فلما أخرجت فرسه قوائمها من الأرض ثار منها غبار مثل الدخان صاعد إلى السماء، وهذه إشارة واضحة إلى سراقة: «أنك تسلك طريقًا مغلقًا ولن يُمكِّنَك الله من الوصول إليهما»،

(١) يُنظر: «مسند أحمد» (٣)، و«صحيح البخاري» (٣٩١١).

(٢) ساخت: أي غاصت في الأرض.

وكما سمع سراقة قراءة النبي ﷺ فقد سمع دعاءه عليه، وعرف أنه ممنوع عنهما بدعوة النبي ﷺ، وعلم أنه لا يطارد رجلين مرهقَين، قد أذعرهما الخوف، وأرهقهما السفر، ولكنه يقف أمام قدرة الله التي لا تغلب، وجنده الذي لا يُرى، فناداهما بصوته الجهير: «قفا لي، فلقد علمت أنني إنما أُصبت بدعوتكما، فادعوا لي الله، وانتظروني أكلمكم، فوالله لا آتيكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، وأنا لكم نافع غير ضار، ولكما أن أرد عنكما مَن يطلبكما» وأعطاهم العهد، والعهد عند العرب له قيمته ووثاقته، فدعا له النبي ﷺ فقامت فرسه، ووقفا له حتى وصل إليهما، فأخبرهما خبر الناس وما يريدون بهم، وعرض عليهم أن يعطيهم ما يحتاجون إليه، فلم يأخذوا منه شيئًا، فقال: «إن إبلي أمامكم، خذوا سهمًا من كنانتي، فإذا وصلتم إلى الراعي أعطوه السهم يعطِكم ما تريدون». فأخبروه أن معهم ما يكفيهم، ولا يحتاجون شيئًا، ولمّا رأى هذه المعجزة تقع له، وهي منعه عنهما، مع أنه قد وصل إليهما، وظن أنه ظفر بهما، فعَلِمَ أن هذا الذي تبعه يُمَدّ بمدد من الله، وأن مآل أمره إلى الظهور والغلبة، وقال له النبي ﷺ بعد أن أنس بهما وتحدث معهما: «**كَأَنِّي بِكَ قَدْ لَبِسْتَ سُوَارَيْ كِسْرَى**»[1]. فقال متعجبا: «كسرى أنوشروان ملك فارس؟». قال ﷺ: «**نَعَم**». وكأني بسراقة يتساءل قائلاً: «إذا كنت قد مُنعت منه بعد أن وصلت إليه ويعِد الآن بسواري كسرى فسيظهر على الجزيرة العربية كلها، فلعله إذا ظهر سيقول: هناك أعرابي من بني مدلج تبعنا في طريق الهجرة ائتوني به حتى أنتقم منه؟»، هكذا أحسبه فكر، وهكذا ظنّ، ولذلك قال للنبي ﷺ: «اكتب لي كتاب أمان يكون آية بيني وبينك».

(١) يُنظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٠٣٣).

وهنا نعجب من هذا الطلب، فالمتوقع أن الذي يسأل الأمان هو المطلوب وليس الطالب، فكيف تحول طالب الظَّفر إلى طالبِ أمانٍ، ويريد وثيقة بذلك؟! إنها لماحية هذا الأعرابي ونظرته إلى المستقبل البعيد، فكتب له عامر بن فهيرة كتاب أمان في رقعة، فأخذها سراقة وطواها ووضعها في كنانته، وقال: «فما تطلبون مني؟». قالوا: «**أَخْفِ عَنَّا**» أي: لَا تَتْرُكن أَحَداً يلْحقُ بِنَا[1]. فرجع ووفّى لهم وصار كلما رأى أحداً يطلبهما ويسأل عنهما يقول: ارجعوا، فقد بحثت في هذا الطريق، فابحثوا في غيره، ولقي رسل قريش فقال لهم: «قد علمتم بصري بالطريق وبالأثر، وقد استبرأت لكم الطريق فلم أجد شيئًا، فارجعوا». فرجعوا، فكان أول النهار مُغيرا عليهما وآخر النهار حارسًا يحميهما.

وأغفى الزمن إغفاءة. ومرت ثمان سنين سريعة خاطفة، وبينما سراقة في منازل بني مدلج إذا به يسمع أن النبي ﷺ قد فتح مكة، وأنه في حنين يقسم غنائم ثقيف الذين جاؤوا لحربه، فانتصر عليهم، وغنم أموالهم، فتجهز سراقة وأخذ معه كتاب الأمان، وتوجه إلى النبي ﷺ في مكة حتى يستوثق من أمانه ويعلن إسلامه، فوافى النبي ﷺ في الجعرانة قريبًا من مكة، والأنصار حوله، فلما أقبل سراقة يريد أن يصل إلى النبي ﷺ، جعل الأنصار يقرعونه بالرماح، ويقولون: «إليك إليك ماذا تريد؟». وكانوا هم حرس رسول الله ﷺ، قال سراقة: «فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأني أنظر إلى ساقه في غرزه، كأنها جمارة»[2]، فأخرج كتابه ونادى: «يا رسول الله، أنا سُراقة بن جُعشم،

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

(٢) الغَرز: هو موضع القدم لراكب البعير، والجمّارة قلب النخلة، شبّه بها ساق النبي ﷺ لشدة بياضها.

هذا كتاب الأمان الذي أعطيتني»، فقال النبي ﷺ: «**ادنُ يَا سُراقَة، الْيَوْمُ يَومُ بِرٍّ وَوَفَاء**». فجاء سراقة والكتاب في يده، وسلّم على النبي ﷺ وأسلم بين يديه، وكأني بسراقة لو علم بخلق النبي ﷺ لعلم أنه في غنى عن هذا الكتاب، فقد قال النبي ﷺ للناس كلهم: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ**»[1]، وعفا عن الذين قاتلوه في بدر وأحد والخندق، وكان عفو النبي سيشمله أتى بكتابه أو لم يأت به، ولم يَرِد أن النبي ﷺ ذَكَّره بذلك الموقف، ولا احتاج سراقة أن يعتذر منه، قال سراقة: «فأردت أن أسأل رسول الله ﷺ، فلم أتذكر مسألة أسأله عنها، فقلت: يا رسول الله، أكون على الماء فتأتي الإبل غير إبلي فأسقيها، ألي بذلك أجر إذا سقيت إبلاً ظمأى ليست لي؟». قال ﷺ: «**نَعَمْ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ**»[2]. وسؤاله هذا من وحي البيئة، لأنه أعرابي يسقي إبله، فجاء سؤاله من بيئته، ونلاحظ أنّ احتفاظ سراقة بالكتاب كل هذه المدة دليل على يقينه بظهور النبي ﷺ.

ثم لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وتوفي أبو بكر، وتولى عمر، وفتحت العراق، وأتي بخزائن كسرى إلى المدينة، وكان من ضمنها سواري كسرى ومِنطقته، فأحبّوا أن يروا حلية كسرى كيف تكون إذا لبسها كسرى، فدعا عمر سراقة، فألبسه سواري كسرى ومِنطقته، وقال له: «ارفع يديك»، فرفعهما، وكان غزير شعر الساعدين، فقال عمر: «الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيًا من بني مدلج».

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٥٨٧)، و«سنن ابن ماجه» (٣٦٨٦).

وإنما ألبسهما عمرُ سراقةَ لأن النبي ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه: «كَأَنِّي بِكَ قَدْ لَبِسْتَ سُوَارَيْ كِسْرَى»[1].

الصخرة التي يرجح أن النبي ﷺ استظل بها ظهيرة اليوم الأول من مسيره، وتبعد عن غار ثور قرابة (٦٠ كم). وهذا يدل على أنهم خرجوا من غار ثور منتصف الليل، وأنهم قطعوا المرحلة الأولى من الطريق مسرعين، فإن هذه المسافة لا يقطعها في يوم إلا المسرع.

(١) يُنظر: «الأم» للشافعي (٤/ ١٦٥)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٠٣٣).

وادي قُدَيْد الذي عبره الركب النبوي

وادي قديد، وهنا الطريق الذي يرجح أن سراقة سلكه في أثر الركب النبوي.

بقايا الطريق

وسار النبي ﷺ في طريقه متوجها إلى المدينة، وكان في طريقه مُردفًا أبا بكر، وكان أبو بكر يسلك هذا الطريق وهو معروف فيه، ورسول الله ﷺ لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر، فيقول: يا أبا بكر، مَن هذا الرجل الذي بين يديك؟. فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه إنما يعني طريق السفر، وهو إنما يعني طريق الخير.

وكلما ابتعدوا عن مكة واقتربوا من المدينة أمن الطريق، وانقطع الطلب، فلما انتهى إلى منطقة الغميم أتاه بريدة بن الحصيب في سبعين راكبا من أهل بيته من بني سهم فتلقوا نبي الله ﷺ ليلا، فقال له النبي ﷺ: «**مَنْ أَنْتَ؟**»، قال: «أنا بريدة»، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، بَرُدَ أَمْرُنَا وَصَلُحَ**»، ثم قال: «**ثُمَّ ممَّنْ؟**». قال: «مِن أسلم». قال: «**سَلِمْنَا**». قال: «**ثُمَّ مِمَّنْ؟**». قال: «من بني سهم». قال ﷺ: «**خَرَجَ سَهْمُكَ**». فقال للنبي ﷺ: «فمَن أنت؟»، قال ﷺ: «**مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، رَسُولُ الله**»، وعرض عليهم النبي ﷺ الإسلام وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم دعوة الحق، فتلقت دعوتَه قلوبٌ طيبة أراد الله الخير لها،

فقال بريدة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله». فأسلم بريدة، وأسلم الذين معه جميعا، فصلى رسول الله ﷺ العشاء فصلَّوا خلفه[1].

وفي الطريق، قابله الزبير بن العوام راجعا من الشام إلى مكة، وكان كغيره من قريش يتاجرون في الشام[2]، وحيث التقى الزبير بالنبي ﷺ في الطريق فمعنى ذلك أن النبي الآن سلك الطريق المعتاد، بعد أن تجاوز القبائل التي حول مكة والتي أنذرتها قريش بالنبي ﷺ وأغرتها بتسليمه لها، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابا بيضا قدم بها من الشام. فادخرا هذه الثياب حتى يلبساها إذا قدما المدينة. والمسافة بين مكة والمدينة قرابة (٤٠٠كم). ومعدل سير الإبل والراجلة في اليوم ما بين (٤٠ و٥٠ كم). ولذلك قطع النبي ﷺ وأبا بكر الطريق في ثمانية أيام، حتى وصلا إلى المدينة.

وكانت القوافل تدخل المدينة عادةً من جهة الشمال، لأن المدينة تحيط بها الحرار والأراضي الوعرة من ثلاث جهات، والجهة المفتوحة هي الجهة الشمالية، لكن عندما يكون عدد القافلة قليلاً خفيف الأحمال، فإنه يتمكن من الدخول من جنوب المدينة، فدخل النبي ﷺ المدينة من جنوبها.

وخلال هذه المدة وهي بقاء النبي ﷺ في الغار، ثم خروجه من مكة وسلوكه طريق الساحل البعيد وصل الخبر إلى المدينة أن النبي قد خرج متوجها إليكم،

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ٢٤٢)، و«معجم الصحابة» للبغوي (١/ ٣٣٨ـ ٣٤٠)، و«أخلاق النبي ﷺ وآدابه» لأبي الشيخ الأصبهاني (٤/ ٦٥). وفي إسناده: أوس بن عبد الله بن بُريدة، قال عنه البخاري: «فيه نظر». ينظر: «الضعفاء الكبير للعقيلي» (١/ ١٢٤).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٩٨).

فحسب أهل المدينة ثمانية أيام وبدؤوا يخرجون لاستقباله، فكانت الأنصار تخرج إلى حرار قباء[1] تنتظر قُدوم رسول الله ﷺ، ويحدثنا جماعة من الأنصار عن أيام الانتظار القلقة التي سبقت وصول الرسول ﷺ.

فيقولون: «لمّا سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوقعنا قدومه كنّا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا ننتظر رسول الله ﷺ، فوالله لا نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلًّا دخلنا، وذلك في أيام حارّة»[2].

ويبدو أنهم خرجوا أيام الجُمعة والسبت والأحد، ويوم الاثنين، ولعلهم توقَّعوا أن النبي ﷺ خَرج من مكة يوم الخميس، فالمتوقَّع أن يصل قباء يوم الخميس أو الجمعة -من الأسبوع التالي- حيث لم يَحسِبوا مُدة البقاء في الغار، فهم قد حَسِبوا خُروجه من مَكة على أنه مَسيرٌ مُتصل، حيث إن مُدة السَّفر من مكة إلى المدينة ثمانية أيامٍ تقريبًا بمقاييس ذلك العصر[3].

فكان الأنصار يخرجون بلهفٍ وشوقٍ، وينتظرون في حَرارة الشمس على تلك الحِرار الملتهبة قدوم رسول الله ﷺ فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم.

---

(١) الحرار: جمع حرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٠١).

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩٢)، و«دراسة في السيرة» د. عماد الدين خليل (١٣٩).

(٣) تستغرق الفترة الزمنية لقطع المسافة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة عادةً عشرة أيام، لمن سلك طريقًا غير مطروق، لكن يُلاحظ أن الركب النبوي وفَّر يومين، حيث استغرق ثمانية أيام بدلاً من عشرة أيام، لأن الركب قليل، سهل الحركة، خفيف المتاع، وقد واصل مسير الليل بالنهار بعد الانطلاق من غار ثَور. ينظر: بحث «التَّتبع المكاني والزماني لمعالم طريق الهجرة النبوية». د. عبد الله القاضي.

وفي يوم الاثنين خرجوا كما كانوا يَخرجون كلَّ يوم حتى تعالى النهار، ولم يبق ظلّ واستيأسوا أن يصل رسول الله ﷺ في هذا الوقت، فعادوا إلى بُيوتهم بعد أن طال انتظارهم، وإذا بالشُّخُوص تظهر من عمق المدينة الجنوبي، يُرَون عن بُعدٍ مُبيِّضِين[1]، يَزُول بهم السَّراب يُظهِرهُم ويُخفِيهم، ولم يكن على الحِرار أحدٌ ممن كان ينتظر، وإنما كان هناك يهودي على حِصنٍ من حُصونهم لبعض شأنه، فنظر وكان قد عاش الحدث هذه الأيام مع الأنصار، حيث يرى خُروجهم، وانتظارهم، وترقبهم؛ فلما رأى الشُّخوص تلوح في السَّراب، صرخ من أعلى الحصن بأعلى صَوتهِ: «يا مَعشر العَرب! هذا جَدُّكُم[2] الذي تنتظرون[3]»، ودَوَّى النداء من فوق الحِصن في قباء، فسُمع مثل الرَّجة في البيوت.

ولك أن تتخيل القُلوب المتلهِّفة، والنُّفوس المشُوقة، وكلٌّ واحدٍ يصرخ في بيتهِ ويُنادي أهله: جاء رسول الله ﷺ، أعطوني السلاح، وخرجوا إلى رسول الله ﷺ، ودفعت البيوت مَن فيها، وسَالت السِّكك بأهل الأحياء، حيث خَرجوا إلى حَرَّة قباء، وجعلت الشُّخوص تتضِّحُ شيئًا فشيئًا، وهم: رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أُريقط.

وكأنك بالركب النبوي، وهو يتهادى من هذه الفِجاج، ومن بين هذه الثنايا والحرار مُصعداً إلى قباء، فانفسحت أمام ناظريهِ المدينة بحِرارها ونخيلها،

(١) عليهم ثياب بيضاء، كساهم إياها الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين لقيهم في الطريق عائداً من الشام.
(٢) جَدُّكُم: أي حظّكم.
(٣) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

فصافح بَصرهُ المدينة، تلك المدينة التي أُريها ﷺ وهو في مكَّة، فرأى أرضها ونخيلها، ولم يعلم مكانها، فما هو شعور النبيِّ ﷺ وهو يرى بعينيه الآن ما أُريهُ في مكَّة؟!.

أيُّ يقينٍ يتلقاهُ قلبُ النبي ﷺ بصدق موعود الله إذ وَعده؟

ها هي المدينة التي أرادها الله مُهاجَراً له، وها هُو ﷺ يَراها عياناً بعد أن رآها مناماً، ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: ٢٧].

ولأنَّ وُصوله كان عند تَعالي النهار وارتفاع الضُّحى، أي: قرابة الساعة الحادية عشرة -وهو وقت اشتداد الحر في المدينة- فإنهُ دخل بستاناً يسمى بئر عِذْق غربي قباء، ليستريح من عناء الطريق، ويستظل من حرارة الشمس، وينتظر تتابع وصول الأنصار الذين خرجوا لاستقباله، ووقف بجانبه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يخطب الناس ويُذَكِّرهم، وكان أبو بكر قد شَمَط الشيبُ شَعر لِحيته، أما النبيُّ ﷺ، فهو أكبر من أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سناً، إلَّا أنه كان على وجهه نضرة وبهاء، ولم يشبْ شيء من شعره، ويبدو أصغر من عمره.

ولذلك فإنَّ الناس عندما أتوا لرؤية رسول الله ﷺ؛ ولم يكونوا رَأوهُ من قبل، جعلوا يُسلِّمون على أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحسبون أنه رسول الله ﷺ، فلمَّا انحسر الظلُّ عن النبيِّ ﷺ بادر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَبسُط رِداءَه يُظلِّ به النبيَّ ﷺ، فعرفه الناس[1].

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩٢).

وكان ذلك يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول في السنة الأولى للهجرة، الموافق (٢٣) أيلول/ سبتمبر، والعجيب أن النبيَّ ﷺ وُلد أيضـًا في يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول، وكذلك تُوفي في يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول[١].

فتخيل قُـدوم النبيِّ ﷺ أوَّل ما قَـدِم، ونزوله هنا أوَّل ما نزل، يَحُفُّ به المهاجرون الأولون الذين سَبقوه بالهجرة: عمر بن الخطاب، وسالم مولى أبي حذيفة، ومُصعب بن عُمير، وحَمزة بن عبد المطلب، وأبو سَلمة بن عبد الأسد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تلك العُصبة الطيِّبة التي آمنت به في مكَّة أوَّل مَن آمن، ثم هاجرت إلى المدينة أوَّل مَن هاجر، وجَلستْ هنا تنتظر قُدوم النبيِّ ﷺ، وها هو قد لحق بهم وقدم عليهم.

تخيَّل الأنصار ورسول الله ﷺ بينهم يبدأ مشروعه الرِّسالي الأول، فلما اجتمعوا عنده قالوا له: انطلقا آمنين مطاعين، وترحّل النبي ﷺ إلى داخل قباء وضجيج التكبير وأهازيج الفرح والنشوة تشق الفضاء حوله.

إنهم سيبدؤون معه وبه، ومن أجله وأجل دعوته عهداً جديداً، كُتب لهم شرف وضعِ أسسه وتشييده وحمايته والانطلاق به، وكان هذا اليوم يوما فارقـًا في تاريخ الإسلام، وحياة البشرية.

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» للسمهودي (١/ ١٩١)، و«تاريخ معالم المدينة» أحمد ياسين أحمد الخياري المدني الأزهري (٢٤٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» إبراهيم العياشي (٢٩٥)، و«آثار المدينة» عبد القُدّوس الأنصاري (١٦٦).

فلما دخل ﷺ قباء نزل على كلثوم بن الهدم في داره، وهو شيخ كبير من أثرياء قباء وأشرافهم[1].

فإذا ذُكرت دار كلثوم بن الهدم، فإنها تُذكر للأوس في قباء، كما تُذكر دار أبي أيوب الأنصاري للخزرج في المدينة.

وعندما نتذكَّر كُلثوم بن الهدم نتذكَّر فضل الله على بعض عباده كيف يكون! فإن الله أكرم كُلثوماً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في آخر حياتهِ، فقد قدم النبيُّ ﷺ المدينة وكلثومُ شيخٌ كبير السن، فأكرمه الله بالإسلام، ثم استضاف النبي ﷺ في داره، فنتساءل: أيُّ رِفعة وأيُّ مكانةٍ نَالها كلثوم بن الهدم، عندما كان يبيت ﷺ في بيته، ويتشارك مع رسول الله ﷺ في نسمات الهواء الذي يتنفسه، والطعام الذي يأكله، والمجلس الذي يجلسه؟ أيّ قُرْبٍ من رسول الله ﷺ ذلك القرب؟! وأي حظوة عند النبي ﷺ تلك الحظوة؟! فهنيئاً له.

ولهذا الصحابي منقبةٌ أخرى عظيمةٌ؛ وهي اختيار النبيِّ ﷺ مِربَده[2] ليكون عرصة لمسجد قباء، فمسجد قباء بُني في مِربَد كُلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقد اجتمعت هذه المناقب، وحاز كل هذه الفضائل والمكرُمَات؛ رجلٌ يعيش آخرَ أيامه، قبل أن يُوَدِّع الحياة!

---

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩٣)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٣).

(٢) المِربد: هو العريش الذي كانت تُجفَّف فيه التمور. ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٨٢).
ومن العجائب والحِكم الإلهية أنَّ موضع المسجد النبوي كان مِربداً للتمر، وكذلك موضع مسجد قباء الذي كان للصحابي كُلثوم بن الهدم، كان -أيضاً- مِربداً.

وحينئذٍ نتذكَّر قولَ النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً اسْتَعْمَلَهُ**»، قالوا: كيف يَستعْمِلُه؟ قال: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ**»[1]، فانظر إلى توفيق الله لكُلثُوم بن الهَدم سَيد قُباء: سَبْقَه للإسلام، وصُحبةُ النبيِّ ﷺ وضيافتُه، والتبرعُ بمِربَدِهِ مَسجداً وأيُّ مَسجد؟! إنه المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم.

ثم كانت وفاة كُلثُوم بن الهَدم رضي الله عنه بعد ذلك بقليل[2].

يُعد بيت كُلثُوم بن الهَدم بيت الضِّيافة والمبيت، وذلك أنه كان شيخًا ثريّا سريّا، له زوجةٌ وخدم، فهو يقوم بضِيافة النبيِّ ﷺ، وإعداد الطعام، وتجهيز المبيت، أمَّا استقبال الناس والجلوس إليهم فكان في بيت سَعد بن خَيثمة رضي الله عنه، وذلك أنه كان شابًا عزبًا، فكان بيتهُ مفتوحًا للاستقبال؛ يجلس فيه النبيُّ ﷺ ويستقبل الناس، فيدخلون ويخرجون بلا تحرج، وكان يسمى منزل العزاب[3].

وهكذا كان النبي ﷺ يُوزِّع الأدوار، فيُشرِك الشُّيوخ والشباب، والمتزوج والأعزب، فكلٌّ لهُ دور ولهُ مُساهمة، فصار بيت سَعد بن خَيثمة مجلس الاستقبال كما كان بيت كلثوم بن الهدم بيت الضيافة والمبيت.

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٠٣٦)، و«جامع الترمذي» (٢١٤٢).

(٢) توفي كلثوم بن الهدم رضي الله عنه في السنة الأولى من الهجرة، قبل معركة بدر بقليل. ينظر: «أسد الغابة» (٤/ ١٩٥).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٣).

خارطة طريق الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة

أيام قباء

وصار الناس يتوافدون على رسول الله ﷺ من قبائل الأنصار في نواحي المدينة مرحّبين به، وجاء بعض اليهود ليتعرفوا على رسول الله ﷺ، ويتبيّنوا سماتِه، وعلامات نبوته.

وممن أتى إلى النبي ﷺ في قباء سلمان الفارسي، الذي تنقل من أصبهان إلى العراق ثم الموصل، ثمّ تركيا، ثم الشام، ثم جاء المدينة، في رحلة طويلة، يلقى فيها الرهبان، ويبحث عن الهداية، ويترقّب ظهور الرسول المنتَظَر الذي يوشك أن يبعث، فلما بلغه أن الرسول ﷺ قدم إلى المدينة أتى ليتعرف عليه وكان عنده علامات على هذا الرسول، أخذها من الرهبان الذين لقيهم، منها: أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، وعلى كتفه خاتم النبوة، فأتى إلى النبي ﷺ ليتحقق من وجود هذه العلامات، وجاء ومعه شيء من تمر قد جمعه، فدخل على النبي ﷺ وقال له: «إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم»، وقرّبه إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**كُلُوا**». وأمسك يده فلم يأكل، فقال سلمان في نفسه: «هذه واحدة».

ثم تحقق من بقية العلامات وتعرف صدق النبوة، فآمن وأسلم واتبع رسول الله ﷺ[1]، وتحرّر من الرّقّ، وانتقل بإسلامه من هامشية العبودية إلى مجلس المشورة، وغرفة القيادة، وفاز بوسام: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[2].

وممن قدم عليه عبد الله بن سلام وهو حبر من أحبار اليهود، يقول واصفًا المشهد: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه. فلما رأيت وجهه واستبنته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[3].

فكان هذا أول لقاء له بالنبي ﷺ، وكانت ملامح وجهه الكريم ﷺ مبشرة بصدقه، وكريم خلاله، وكان هذا الحديث أول ما سمعه من رسول الله ﷺ، ثم لقيه بعد فسأله أسئلة تحقق بها من صدق نبوته، فآمن به، واتبعه، وواجه قومه اليهود، ودعاهم إلى ما آمن به، ولكن غلبهم الكبر والحسد، فلجّوا في كفرهم وعنادهم.

وممن أتى إلى النبي ﷺ وهو في قباء حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب من زعماء يهود بني النضير. وقد روت أمنا صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب خبر قدومهما قالت: «كان أبي يحبني كأشد ما يحب الرجال بناتهم، وقَلَّ ما أتيتُه إلا ترك ما معه وأقبل علي، فلما أتى النبي ﷺ إلى قباء، ذهب أبي وعمي أبو ياسر إليه مبكّرين صباحًا يريدان أن يتأكدا هل هو النبي الذي وُعد به يهود،

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٣٧).

(٢) «المستدرك» للحاكم (٦٥٤١)، وفي إسناده ضعف.

(٣) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٣٤، ٣٢٥١)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٥).

ثمّ عادا في آخر النهار كالَّيْن مجهودَين، فأقبلت على أبي كما كنت أقبل عليه، فوالله ما نظر إلي ولا أبِه بي. لأن عنده أمراً قد كربه وأشغله، فسمعت عمي يقول له: أهو هو؟، أي: أهذا هو النبي الذي نوعد؟، فقال: هو هو. قال عمي: ما عندك له؟. قال: -وقد غلبه الحقد والحسد-: «عداوته ما بقيت»[1].

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥١٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٣٣).

بئر عذق، وهي البستان الذي نزله النبي ﷺ أول وصوله إلى قباء، وتبعد عن مسجد قباء نحو (١٤٠ مترا).

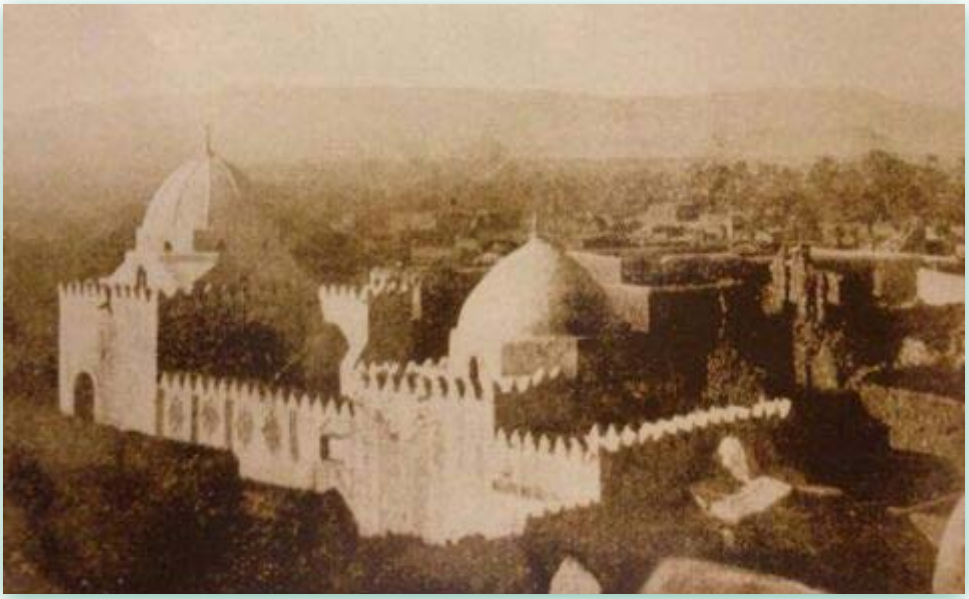

دار كلثوم بن الهدم، ودار سعد بن خيثمة في قبلة مسجد قباء قبل إزالتهما

صورة قديمة لدار كلثوم بن الهدم

دار كلثوم بن الهدم في مكان اللوحة بجوار النخلة، ودار سعد بن خيثمة في مكان اللوحة عند المنارة الغربية، وقد أزيلت الدور توسعة للساحة، وعُلِّم مكانها بلوحة تعريفية، وتبعد دار كلثوم عن دار سعد (١٥ متراً).

مسجد قباء

وكان أول مشروع بدأ به النبي ﷺ بعد قدومه إلى قباء هو بناء المسجد، لأنَّ مُهمَّة هذا النبيِّ ﷺ ورسالتهُ هي صِلة الخلق بالخالق، وتوجيه البشرية إلى بارئها، والوجود إلى مَن أوجده، وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ بالسجود له، فبنى مسجداً يُسجد لله فيه.

وكأنه يقول: نحن عَبيدٌ لله وصِلَتُنا بالله العبودية، وأجلى مجال العبودية لله: السجود، فبنى لله مَسجداً.

وكان ﷺ يُقدِّم القُدوة، ولا يقول: لهم ابنوا! بل يحمل هو الحجر فيحملون، ويبنى فيبنون.

حتى اكتمل بناء قبلة المسجد الشامية نحو بيت المقدس.

لم يكن بِناء النبيِّ ﷺ لمسجد قباء بناءً كاملاً، وإنما كان بناء تأسيس، أي بناء الحائط القبلي إلى الشام قبل أن تُحَوَّل القبلة، ولذلك لم يُذكر لنا أن النبيَّ ﷺ نَصب أعمدة، ولا أَظلَّهُ بسقف، وإنما أسَّس المسجد، ثم بَناه بعد ذلك أهل قباء، وهم بنو عمرو بن عوف؛ لكن هذا المسجد قد نال شرف تأسيس النبيِّ ﷺ له.

وإذا تكلمنا عن مسجد قباء، فإننا نتكلَّم عن أول مسجد صلى فيه النبي ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً، وأوَّل مسجدٍ بُني في الإسلام لجماعة المسلمين عامة، أما المساجد التي بُنيت قَبله، فكانت لخصوص الذي بناها، كمسجد أبي بكر الذي اتخذه في مكة في فِناء بيته، أو المساجد التي اتخذها المهاجرون أوّلَ ما قدِموا المدينة في أماكنهم، ولم ينقل لنا خبر بنائها، ولذا فإن أول مسجدٍ بَناهُ النبيُّ ﷺ وصلَّى فيه المسلمون مسجد قباء، فكانت له هذه الأولوية.

ولذا قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

إن بداية عُمْر الأمة مجتمعاً وكياناً كان ببناء هذا المسجد، وقد قام فيه -بأبي هو وأمي- أوَّل ما قام، ثم عندما تحوَّل ﷺ إلى المدينة، بقيت ذكرى هذا المسجد وحُبُّه عامرين في قلبه ﷺ، ولذلك لم ينقطع عنه، فكان يزوره كل سبت من كل أسبوع[1].

(١) «صحيح البخاري» (١١٩١).

صورة قديمة لمسجد قباء قبل تجديده

مسجد قباء بعد تجديد عمارته

من قباء إلى المدينة

وبقي النبي ﷺ في قباء أيّامـًا، ولحق به بعد وصوله قباء بثلاثة أيام علي بن أبي طالب، بعد أن أدى الأمانات ورد الودائع إلى أهلها، واختلفت الروايات في تحديد مدة بقائه: هل بقي أربعة أيام أو بضعة عشر يوما، ثم أرسل ﷺ إلى قبائل الأنصار ليصحبوه في مسيره إلى المدينة، فكلّهم لهفة وشوق لمرافقته.

ثم توجّه مَوكبه المبارك الميمون يوم الجُمعة إلى داخل المدينة، ولا تسأل عن جلال الموكب النبوي وهو يسير من قباء، يُحيط به قُرابة (٥٠٠) من الأنصار من جميع قبائلهم يحملون أسلحتهم على عواتقهم؛ إعلانـًا بالحفاوة والنُّصرة والحماية لرسول الله ﷺ، تخيل ازدحامهم وضجيجهم، تخيل نشوة فرحهم، كيف كانت الفرحة تُشع من العيون، كيف كان الهتاف يشق الفضاء، ولا أحسب إلا أن ملائكة السماء كانت تحفهم، وتضع أجنحتها لهم إكراما لخطواتهم، واحتفاءً بمسيرتهم.

سار الموكب النبوي من قباء إلى أن وصل إلى مكانٍ مُنخفضٍ يُسمى «**وادي رانوناء**»[1] وكان يَسكُن في جهة الوادي الأُخرى بنو سالم بن عوف من الخزرج، أمَّا أهل قباء فهم بنو عمرو بن عوف من الأوس، فلما مَرَّ النبي ﷺ بهذا الوادي وقف له سادتهم، وكان منهم عِتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجَمْعٌ من سادات بني سالم بن عوف.

فاستوقفوا رسول الله ﷺ، وقالوا: «يا رسول الله، انزل عندنا حيث المنعة والقوَّة يا رسول الله، ما أتى أحدٌ عندنا إلا كان في حمايةٍ ومنعة، فانزل عندنا»، فقال ﷺ: «**دَعُوهَا** -يعني الناقة- **فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[2].

هنا تحرَّكت مشاعر المنافسة بين القبائل؛ -بني عمرو بن عوف من الأوس، وبني سالم بن عوف من الخزرج- فقالوا: يا رسول الله أقمتَ عند بني عَمِّنا أياماً، ثم تمرُّ من عندنا وتدعنا! صلِّ عندنا يا رسول الله، وكان الوقت قريباً من أذان الظهر وقد قارب وقت صلاة الجمعة، فنزل النبي ﷺ في مكان مُنهبط في الوادي، فصلَّى صلاة الجمعة؛ لتكون أوّلَ جمعةٍ يُقيمها رسول الله ﷺ في الإسلام في مسجد بني سالم بن عوف[3]، الذي لا يزال قائماً إلى اليوم، ويسمى مسجد الجمعة.

---

(١) وَادٍ صَغِيرٌ بَيْنَ قُبَاءَ وَمَسْجِدِهِ ﷺ، يَصُبُّ مِنْ حَرَّةِ قُبَاءَ فِي وَادِي بَطْحَانَ جَنُوب مَسْجِدِ الْغَمَامَةِ، ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» (ص: ١٣٥).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٤).

(٣) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام(١/ ٤٩٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٤)، و«معرفة السنن والآثار» (٤/ ٣٢٠).

وفي هذا مشهدٌ من مشاهد التنافس بين الأنصار في الحفاوة برسول الله ﷺ وإكرامه، ومشهدٌ من مشاهد الحب لرسول الله ﷺ، حيث حرصوا على نزوله، وإصابة البركة بصلاته والصلاة معه.

ومشهدٌ لمراعاة المشاعر النفسية؛ فإن بني سالم بن عوف جيران بني عمرو بن عوف، ولذا طيَّب النبيُّ ﷺ خواطرهم، وأجاب طلبهم؛ بالنزول عندهم، والصلاة بهم، ثم واصل مسيره.

ثم ركب ﷺ متوجهاً إلى المدينة، وكانت المدينة أحياء متفرقة في كل حي دور وبساتين لعشيرة من الأوس أو الخزرج، كحي بني ساعدة وبني سالم بن عوف، وبني حارثة، وبني سلِمة، وبني ظفر، وغيرهم، وخرج الأنصار من دُورهم يتلقَّونه، فمن كان محلُّهم على طريقه وقفوا له، ومن لم يكونوا على طريقه اعترضوه في الطريق، وأخذوا زمام راحلته، وكل عشيرة تقول: «انزل عندنا يا رسول الله، انزل حيث المنعة والقوة، انزل عندنا، فنحن أهل الحلقة والسلاح»، فيقول النبي ﷺ: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**». وكان ﷺ متوجها إلى دور بني النجار أخوال جدّه عبد المطلب ليكرمهم بذلك، حتى وصلت ناقة النبي ﷺ إلى ديار بني مالك بن النجار، فدخلت مربداً هناك، فبركت فيه، والنبي ﷺ جالسٌ عليها، فجعلت تتلفَّت يمينا وشمالا، ثم قامت، ودارت ثم رجعت إلى مكانها نفسه، فبركت فيه ثم ضربت بجرانها على الأرض، ورزمت[1] فقال النبي ﷺ: «**هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[2]. وكان هذا المكان هو موضع مسجده بعد ذلك.

(١) رزمت: هو صوت الناقة إذا بركت واستقرت.

(٢) يُنظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٩٧٨)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٤٤).

فنزل رسول الله ﷺ، ونزل أبو بكر وأطاف به بنو النَّجار.

وهنا ثار التنافس بين الأنصار؛ عند مَن ينزل رسول الله ﷺ؟!

فكلٌّ منهم يقول: يا رسول الله؛ انزل عندي، بيتي قريبٌ هنا، وبينما هم مُنشَغِلون برسول الله ﷺ يَعرِضُون عليه النزول إذا خالد بن زيد -وكان شاباً في نحو الثلاثين من عمره- قد توجه إلى راحلة النبي ﷺ، فحلَّ الرَّحل وحمله، فَقَالَ النبي ﷺ: «**أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟**»، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: «أَنَا يَا نَبِيَّ الله، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي»، فضحك ﷺ وقَالَ: «**الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ، فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلاً**»[1].

فانطلق أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورَحْلُ رسول الله ﷺ بين يديه، وكأنَّ كُنوز الدنيا قد حِيزت إليه، فأيُّ فخرٍ أعظم من أنَّ رسول الله ﷺ سيسكن معه في دَاره؟! وليس أحد غير الله يعلم خفايا القلوب واستحقاقها لهذا الشرف العظيم.

دخل أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيته وكأنِّي به يُنادي زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أمَّ أيوب قرَّةُ عينٍ لنا! رسولُ الله ﷺ سينزل عندنا، هيَّا هَيِّئي له مَقِيلاً.

ما أعذب الحُبَّ الذي يشعُّ من تلك العيون، ويملأ تلك القُلوب، الحَيُّ كله في حالة احتفاءٍ وفرح، وكانت فرحةً عامة عارمة اشترك فيها الرجال والنساء والصبيان والخدم والجواري.

فالرجال يسايرون الركب ويحفّون به يحملون أسلحتهم، ولهم صخب بالتكبير والترحيب، والنساء على أسطح البيوت يتراءين بشوق ويتنادين: أيهم هو؟ أيهم هو؟. والصبيان والخدم والجواري يعْدون في السّكك

(١) «صحيح البخاري» (٣٩١١). ومقيلاً: مكانا يقيل فيه، من القيلولة وهي النوم وسط النهار. ينظر: «عمدة القاري» (١٧/ ٥٣).

بضوضاء الطفولة وصخبها: جاء رسول الله.. جاء رسول الله. ولا تزال تتخيل المشهد حتى يتكثف أمامك فكأنك تعيش نشوته، وتطفر في قلبك بهجته، كأنك تتراءى الموكب عن بعد فتندفع لتلحق بهم عسى أن تُدرك نظرة، أو تلوح لك لمحة.

يا لله! هل اقتربت؟ هل رأيت؟ هل دخلت في غمارهم؟ هل سمعت تكبيرهم وهتافهم؟ هل تذوقت نشوة فرحهم؟ هل سَرَت في قلبك تلك المشاعر، وهل غمر قلبك ذاك الشعور؟ بالله عليك، إن شَعَرت بذلك فصِفْ لنا لهفة الشوق وبهجة الفرح بمقدم موكب الرسول ﷺ، ودهشة اللقاء الأول به، في أسعد يومٍ مرّ على المدينة فاستنارت، وأنارت، كيف طفح البِشر على الوجوه، و ذرفت دموع الفرح من العيون:

وفاضت من العين الدموع مهابةً ... لأحمد بين الستر والحجراتِ

وأشرق نور تحت كل ثنيّةٍ ... وفاح أريج تحت كلِّ حصاةِ

يقول البَرَاء بن عازب: «ما رَأَيْتُ أَهْلَ المدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ برسول الله ﷺ؛ حَتَّى رَأَيْتُ الوَلَائِدَ[1] وَالصِّبْيَانَ يسعون في السكك يَقُولُونَ: الله أكبر، هَذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جَاءَ، قد جاء رسول الله ﷺ»[2].

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجَ أَهْلُ المدِينَةِ يَتَلَقَوْنهُ حتَّى إِنَّ النِسَاءَ لَفَوْقَ الْبُيُوتِ يَتَرَاءَيْنَهُ، يَقُلْنَ أَيُّهُمْ هُوَ، أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَمَا رَأَيْنَا مَنْظَرًا شَبِيهًا بِهِ يَوْمَئِذٍ،

(١) الوَلَائِدَ: جمع وَلِيدَةٌ، وهي الطفلة. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٢٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٤١).

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ عَلَيْنَا المدينة وَيَوْمَ قُبِضَ، فَلَمْ أَرَ يَوْمَيْنِ شَبِيهًا بِهِمَا، وَلمَا كانَ اليَوْم الَذي دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ المدِينةَ أَضاءَ مِنْهَا كُل شَيءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»[1]، إنه السرور الغامر ملأ النفوس حتى كأن المدينة كانت مظلمة فأشرق عليها نورٌ غمرها حتى أضاء منها كل شيء، وكان أول ما أضاء واستنار قلوب المؤمنين به المتشوقين لرؤيته.

هَا هُو رسول الله ﷺ قد نزل بفناء دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانتشر الخبر، وإذا بُنَيَّات الأنصار اللاتي يَسعَين في السِّكك لرؤية رسول الله ﷺ يجتمعن إليه، وعَبَّرت البُنيَّات الصَّغيرات عن الفرحة بطريقتهنَّ الخاصة، فجئن ومَعهُن الدُّفوف! في احتفالية ترحيبيةٍ برسول الله ﷺ، وكأنك ترى انفعال الحب وبهجته في ذلك المشهد العفوي، والدُّفوف تُقرَع وأصوات الطفولة تُنشد:

نحنُ جوارٍ من بَني النَّجَّارِ ... يا حَبَّذا مُحمَّدٌ من جَارِ

وإذا بالنبيِّ ﷺ يُقبل عليهنَّ ويستمع لنشيدهن حتى إذا انقطع النشيد أقبل النبيُّ ﷺ عليهن، وقال لهنَّ: «**أَتُحِبِبْنَنِي؟!**»، فقلن: «نعم يا رسول الله»، فقال ﷺ: «**وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ**»[2].

ما أعظم هذا الحبَّ عندما يكون أول شَعيرةٍ عاطفية تُعلن في المدينة: «**وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ**».

(١) يُنظر: «مسند أحمد» (١٣٣١٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٣١)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٨).

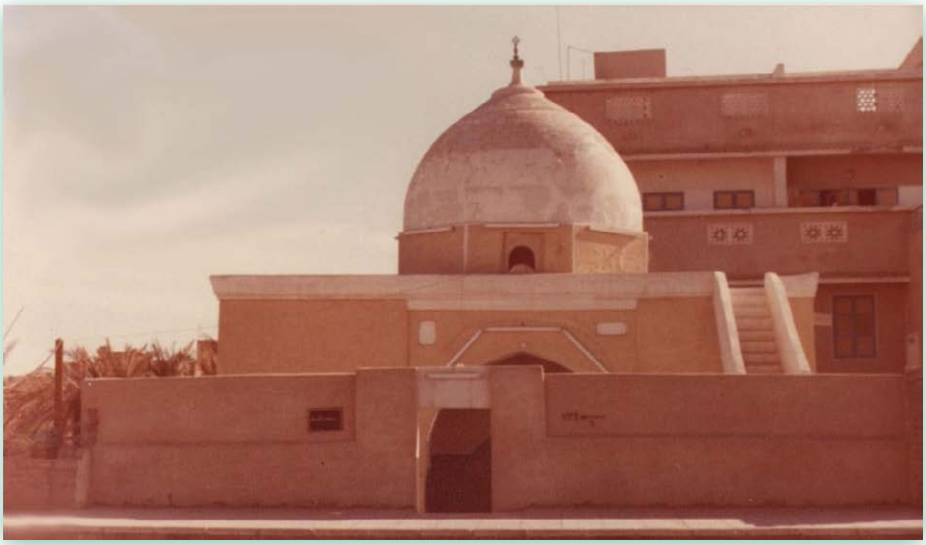

مسجد الجمعة قبل تجديده، حيث صلى رسول الله ﷺ في طريقه من قباء إلى المدينة

مسجد الجمعة بعد تجديد بنائه

في بيت أبي أيوب

خرج أبو أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِنْ داره بعد أن هيّأها لاستقبال أضيافه، وقال: «يا رسول الله قُوما على بركة الله»، فدخل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ دار أبي أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقضى أبو أيوب أشهراً رائعة بصحبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ومساكنته وخدمته، فلم يكن أحد أسعد حظاً منه بذلك، وكان خلال هذه المدة في غاية الأدب والتعظيم لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ[1]، فقد اختار صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أن يسكن في أسفل الدار؛ حتى يَسهُل دخول الناس وخروجهم عليه، وسكن أبو أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في عُلْوِها، فتحرَّج أبو أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يمشي على سقفٍ تحته رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فقال: «يا رسول الله لو تحوَّلتَ إلى العُلو؟ ونحن نكون في أسفل الدار، فإني أكره أن أعلو بيتاً أنت في أسفلهِ»، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا أَنْ نَكُونَ فِي السُّفْلِ لِمَنْ يَغْشَانَا**»، فقبِل ذلك أبو أيوب، لكنه صار يتحرك بحذر، فيمشي على حواف الغرفة، حتى لا يكون في المكان الذي يعلو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ.

(١) «دروس من السيرة» سميرة زايد (١٨٤).

وفي إحدى الليالي انكسرت جَرَّةٌ فيها ماء فانسكب على أرض الغرفة، فخشي أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتسرَّب الماء، فيقطر على رسول الله ﷺ قال: فأخذنا قَطِيفةً ما كان عندنا من لحافٍ نلتحف به غيرها! وجعلنا نُجفِّف بها الماء، فلما أصبح قال: «يا رسول الله لا أريد أن أعلو داراً وأنت في أسفلها»، فرفق النبي ﷺ بأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتحوَّل إلى العُلو ونزل أبو أيوب إلى أسفل الدار[1]، وكان يتولَّى خدمة النبي ﷺ وفِراشه.

وكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَحَرَامٌ هُوَ؟»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا؛ وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ**»، قَالَ: «فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ»، قَالَ: «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى»[2].

في هذه الدار أكل رسول الله ﷺ أول طعامٍ، وأغفى أول إغفاءة، وجلس أول مجلس.

في هذه الدار تقاسم النبيُّ ﷺ السُّكنى مع أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبعة أشهر، فكان له فيها أوَّل مأوى وأوَّل سكن[3].

---

(١) «مستدرك الحاكم» (٥٩٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٣). يؤتى: أي تأتيه الملائكة والوحي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٩).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٧).

وبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن، وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(١).

وترحلت سنوات العمر برسول الله ﷺ، فلحق بالرفيق الأعلى، وتبعه خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وأبو أيوب رضي الله عنه يعيش بركة عمره بإيواء رسول الله ﷺ ومشاركته داره، ويُذكَرُ أبو أيوب كلما ذُكر بهذه المنقبة العظيمة التي اختُص بها، فعندما قدم على ابن عباس في البصرة أفرغ له بيته وقال: «أصنع بك كما صنعت برسول الله ﷺ». وقال له: «لك كل ما في البيت»، وقضى دينه، وأعطاه عشرين ألف درهم وعشرين مملوكًا، وأكرمه لإكرامه رسول الله ﷺ(٢).

وبعد ذلك فمَن يظنُّ -مهما اتسع خياله- أن ذاك الشاب الذي حمل رَحْل النبيِّ ﷺ حين جاء مهاجراً إلى المدينة سيكون بعد خمسين سنة مع راية رسول الله ﷺ التي تقتحم أوروبا وتحاصر القسطنطينية، وأنه سيشهد حصارها، ويموت ويُدفن عند أسوارها، وأنه سيكون الصحابي الذي احتضنت أوروبا جسدَه، وتعطرت تربتها برفاته.

وأنا الآن في القسطنطينية، أسمع الأذان يدوّي كل وقت صلاة، يقول: «أشهد أن محمدا رسول الله»، فأقول: أين أبو جهل؟ أين أمية بن خلف؟ أين عتبة بن ربيعة؟

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٢) «مكارم الأخلاق» للخرائطي (٤٤٢)، و«المستدرك» للحاكم (٥٩٣٦).

هل يدرون أين بلغ دين محمد ﷺ؟ وكم بلغ عدد أتباعه؟ وأنه لم يبقَ نقب من الأرض إلا بلغته رسالة الإسلام ونودي فيه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله»؟.

وقُرّةُ عين لأبي أيوب، كيف لو رأت عيناه المدينة التي كان يحاصرها وقد صارت دارَ إسلام، تَشقُّ سماءها المآذنُ، ويُدَوِّي في أرجائها الأذان!؟.

وصدق الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

دار أبي أيوب الأنصاري، وبجوارها مكتبة عارف حكمت قبل إزالتها، وتقع قريبًا من الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد النبوي.

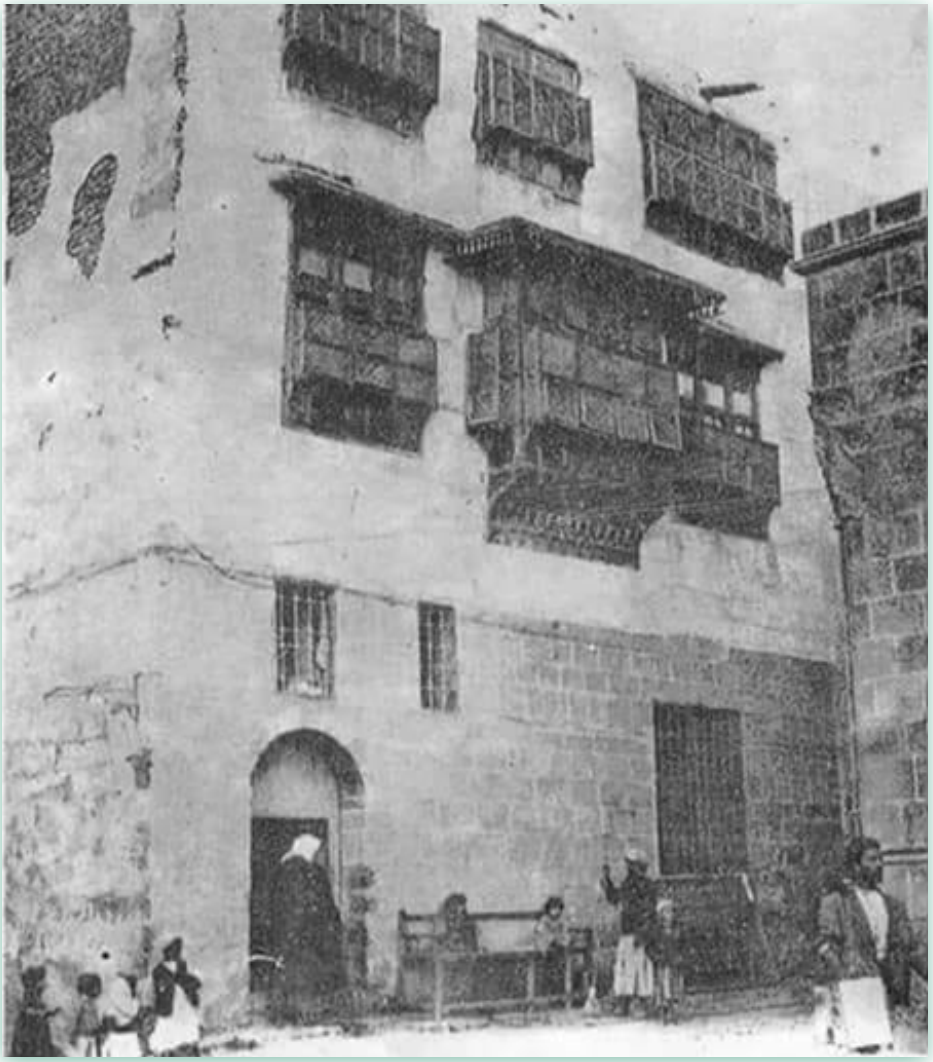

مكان دار أبي أيوب الأنصاري قبل إزالته

المهاجرون في المدينة

لم يكن انتقال المهاجرين إلى المدينة نزهةممتعة، ولا الإقامة فيها إقامة مرفَّهة، لكنه انتقال إلى مرحلة أخرى من المصابرة والمجاهدة وقوة الاحتمال، ومضاء العزيمة، وشدة الإصرار.

لقد انتقل المهاجرون من مكة، وهي بيئة جبلية جافّة، إلى المدينة وهي ريف تجري فيه المياه وتكثر المستنقعات التي تغيرت مياهها وتلوّثت، وصارت مجمعاً للحشرات وخاصة البعوض، وصارت موبوءة بحمى الملاريا، وعرفت المدينة بهذا الوباء فيقال لها: حُمّى يثرب.

ولِذا كان أول ما استقبل المهاجرين في المدينة بعد استقرارهم فيها وباؤُها وحمّاها، وممّن أصابتهم الحمّى صحابة النبي ﷺ وأهل بيته، وحَمَى الله نبيَّه فلم تُصبه، فكان منها في عافية.

وكان ممن أصابتهم الحمّى عائشة وأبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة، وتحكي عائشة رضي الله عنها قصتهم مع الوباء أولَ ما وصلوا، قالت: «قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان وادي المدينة بطحان يجري ماءً آسنًا،

قد تلوث وتغير طعمه ورائحته، ونبتت فيه أشجار المستنقعات كالغَرقد، فاشتكى أصحاب رسول الله ﷺ ومرضوا، ومرض أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة، فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أزورهم، فأذن لي، فدخلت على أبي، فقلت: يا أبتِ، كيف تجدك؟ فقال:

كـلُّ امـرئٍ مصبَّح فـي أهلـه ... والموت أدنى مِن شِراك نعله[1]

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، إنه ليهذي.

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وَجدتُ الموتَ قبل ذَوقِهِ ... إنَّ الجبان حَتْفُه مِنْ فَوقِه

كـلُّ امـرِئٍ مجاهدٌ بطَوقِهِ[2] ... كالثَّورِ يَحمي جِسمَه برَوْقِه[3]

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى رفع صوته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخَر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل[4]

---

(١) شِراك النعل هو: سير النَّعْل على ظهر الْقدَم. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، و«المعجم الوسيط» (١/ ٤٨٠).

(٢) بطوقه: أي أقصى غايته.

(٣) برَوقه: أي بقرنه.

(٤) الإذخِر: حشيش طيب الرائحة. يُنظر: «مشارق الأنوار» لعياض (١/ ٢٥)، و«جَليل»: نبتٌ ضعيف تُحشَى به شقوق البيوت وغيرها، و«مياه مَجَنّة»: موضع على أميال من مَكّة وكان به سوق، و«شامة وطَفِيل» هما جبلان بمكة. يُنظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٥٠١).

اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

فقلت: إنَّهم لَيَهذونَ.

فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنَّهم لَيَهذونَ وما يَعقِلونَ من شِدّة الحُمَّى. وأخبرته بقولهم، فنظر إلى السماء، وقال: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ**»(١).

وكما عادت عائشة أباها وهو مريض فقد اشتكت هي الحمّى، فكان أبوها يزورها، ويطمئن عليها، وهذا يدل على تفشّي هذا الوباء وانتشاره في المهاجرين، وقد كابدوا المرض وصبروا، كما كابدوا الغربة وصبروا، وكابدوا الفقر وصبروا، فلم تكن الهجرة محطة استراحة ورفاهية، بل كان ما بعدها أشد وأشقّ مما قبلها، فقد استقبلوا في المدينة النشاط العبادي والجهادي والدعوي ولكلّ ذلك تبعاته ومشقاته، ومع ذلك فلم يُنْقَل عن أحد منهم ضجر من الشدة، أو ندم على الهجرة، وإنما كانوا مغتبطين بصحبة رسول الله ﷺ والهجرة معه، وهم يرونه يشاركهم حالهم، ولم يستأثر بشيء دونهم، ومما يوضِّح ذلك: قصة ارتداد عبد الله بن أبي السرح، فهو -فيما يظهر- لم يرتد بسبب جريمة قارفها يخشى عقوبتها، ولا دين لم يستطع وفاءه، ولكنه ارتد لأنه لم يستطع احتمال تعب الهجرة وتبعاتها،

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (١٨٨٩)، و«مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (٥٨٨ ـ ٥٨٩).

ولأواء المدينة ومشقاتها، ولذلك رجع وتظاهر بالرّدّة، وهي حالة ضعف بشري رضخ لها ابن أبي السرح، ولم يكن ذلك سخطةً لدينه بعد أن عرفه وآمن به.

وفَهمُنا لهذا السبب يجعلنا نعلم ما الذي تحمله بقية المهاجرين الذين صبروا في هجرتهم وصدقوا فيها، ويتضح لنا معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهذه حال كل المهاجرين، وكأنما خرجت هذه الحال الاستثنائية لتبين فضل مَن ثبتوا وصبروا وكان حالهم كما وصفهم الله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ويا ليت شعري! ماذا تساوي لَأْوَاءُ الحياة وشدائدها العابرة عند مَن ينتظر فضلاً من الله ورضوانـًا؟!.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، هو أكبر وأبقى من كل نعمة ونعيم، ولِذا تهون في سبيله كل مصيبة، وتحتمل كل شدة.

وهنيئـًا لهم وقرة عين شهادة الله لهم بالصدق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ومَن صدق الله بعمله صدقه اللهُ بثوابه وموعدته، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

عشر سنين

ما إن استقر ﷺ في المدينة حتى بدأ فورًا الانطلاق بمشروعه الرسالي وعمله الدعوي، وقبل أن يبني بيته بنى مسجده، وقبل أن يأتي بأسرته ألّف مجتمعه، فبمجرد دخوله المدينة أطفأ تلك العداوات المتطاولة بين الأوس والخزرج، وتحوّلت الخصومة إلى منافسة في الفضل ومسارعة في الخير.

وآخى بين المهاجرين والأنصار بوثاق الدين ورباطه المتين، فأصبحوا بنعمة الله إخوانـًا، وعاهد بين المسلمين واليهود لتكون الوطن الجامع والآمن، وعاهد القبائل حول المدينة على كف اليد، ووضع الحرب، ومد الأمان، وقطع العدوان.

وبذلك تَكتَّبَ في المدينة جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة، ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرَّفـًا بوحي الله وهدي رسوله ﷺ[1].

وإذا نظرت إلى المرحلة المكّية من الدعوة وجدتها متداخلة وكأنها كتلة واحدة وحالة متماثلة، لأنها مرحلة بناء الأساس والحفر في العمق، هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة، قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة

(١) يُنظر: «وحي الرسالة» أحمد حسن الزيات (عدد ٨٥٢).

في مثل سنة واحدة، وكان ﷺ على ذلك وهو في حدود نفسه وضيق مكانه يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه تشرق في قلبه قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة[1]، فإذا نظرت إلى المرحلة المدنية فإنك تجد كثافة في الإنجاز وتسارعاً في الأحداث، وتطوّراً ونموّاً وانتشاراً متتابعاً سريعاً، وذلك أنّها تشييد البناء بعد تأسيسه، والانطلاق بالدعوة بعد رسوخها، وما لبثت الأسباب أن آتت أكلها، والخطوات أن انتهت إلى هدفها[2].

وقضى النبي ﷺ في المدينة عشر سنين لا تعادل في عمر الأمم مئات السنين ولا آلافها، وكأن اليوم فيها بشهر، والشهر فيها بدهر، ذلك أنها حقبة من الزمن لامعة مضيئة، متتابعة في نجاحاتها، ضخمة في إنجازها، باهرة في نتائجها، لا يمكن أن تقاس بها الحقب، ولا تشبهها الأيام.

حتى بَلَّغ النبيُ ﷺ رسالته واستتم شريعته، فأكمل الله الدين، وأتم النعمة، ورضي للبشرية الإسلام ديناً، وجعلهم على صراط مستقيم، وهدى واضح مستبين.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»[3].

---

(١) «وحي القلم» للرافعي (٢/ ١٨).

(٢) «دراسة في السيرة» د. عماد الدين خليل (١٢٨).

(٣) من مقالة «وحي الهجرة» لمصطفى صادق الرافعي. يُنظر: «وحي القلم» (٢/ ١٤ ـ ١٨). ويُنظر الحديث: «صحيح البخاري» (٢٨٨٩).

ولم يكن إكمال دين الإسلام إكمالا لرسالة محمد ﷺ ودينه، بل كان إكمالا لرسالات الرسل كلهم، وتتميمًا لمشروع الأنبياء الرسالي، فإن كل رسول بعثه الله كان لمشروعه تتمة يأتي بها نبيٌّ بعده، ولِذا أخذ الميثاق على النبيين كلهم ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فجاء دين محمد ﷺ مصدِّقًا لأديان الرسل جميعًا، ومتمِّمًا لها، وجاء بنبوّته خاتمة للنبوات قبله.

فكمّل بدينه دين الأنبياء، وخُتمت برسالته رسالتهم، واكتمل بناؤهم كما قال ﷺ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟، فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٦).

رسم تخيلي للمسجد النبوي عند بنائه الأول، وأعمدته جذوع النخل، وتظهر الصُفة في أسفل الصورة، وبيت عائشة في الجهة الشرقية على يسار الصورة.

هجرات أخرى

الهجرة شعيرةٌ واسعة تشمل هجراتٍ متنوّعة، مَن فاتته إحداها لم يعجز أن يدرك غيرها. فمنها:

أولاً: الهجرة المكانية، وهي التي ينتقل فيها الإنسان من بلده الذي كان مستقرّاً فيه إلى بلد آخر لمصلحةٍ دينية.

كأن يهاجر إلى بلدٍ يأمن فيه على دينه أو يستطيع أن يعمل فيه لدينه، وهذا هو الأصل في الهجرة، وأعظمها وأشرفها هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهي هجرةٌ بالدين ولأجل الدين، فهاجروا حيث يأمنون على دينهم، وحيث يعملون له ويدعون إليه.

ثانيًا: الهجرة السلوكية، وهي هجرة ما نهى الله عنه من الذنوب والخطايا بالابتعاد عنها، كما يبتعد المهاجر عن بلده التي يُكره فيه على المعصية إلى بلدٍ يأمن فيها.

وهذه الهجرة هي التي بيّنها النبي ﷺ ورغّب فيها بقوله: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»(١). وسُئل ﷺ: أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ**»(٢).

وفي التعبير عن تجنّب المنهيات بلفظ «الهجرة» إشعارٌ بالتباعد الشديد عن مواطن المنهيات والخطايا، كما عبّر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولم يقل: «**وَلَا تَفْعَلُوا**»، إشعاراً بمزيد التباعد والتوقّي والاحتياط.

ثالثًا: الهجرة القلبية، وهي الهجرة بالقلب إلى الله، وهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد بالهجرة المكانية تابعةٌ لها، وهي هجرةٌ مطلوبة من كل أحدٍ في كل وقت.

فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، وهذا هو الفرار إليه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

فالفرار من الله لا يكون إلا إليه، فإذا فرّ العبد من شيءٍ يكرهه، فإنما يفرّ من شيءٍ يقع بمشيئة الله وقدره، إلى مَن بيده المشيئة والقدرة، فهو في الحقيقة فرّ من الله إليه كما قال ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»(٣)، وقوله ﷺ: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»(٤). فإنه ليس في الوجود شيءٌ يفرّ الإنسان منه ويستعيذ منه إلا وهو من الله خلقًا وقدراً، فالفارّ والمستعيذ فارٌّ ممّا أوجبه قدر الله ومشيئته إلى ما تقتضيه رحمته وبرّه، فهو في الحقيقة هاربٌ من الله إليه، ومستعيذٌ بالله منه.

(١) «صحيح البخاري» (١٠).
(٢) «مسند أحمد» (١٥٤٠١)، و«سنن أبي داود» (١٤٤٩).
(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٦٣١٥).

وإذا تحقّقت هذه الهجرة القلبية إلى الله، وجد القلب الطمأنينة بالله، والأنس به، والإقبال عليه.

فعلى العبد أن يهاجر إلى الله، ولا ينفكّ في هجرةٍ حتى الممات، وهذه الهجرة هي مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله[1].

رابعًا: الهجرة النبوية، وهذه الهجرة فرضٌ على كل مسلم، وهي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله، ومقتضى هذه الهجرة المتابعة التامة والانقياد الكامل في كل مسألةٍ من مسائل الإيمان، وكل نازلةٍ من نوازل القلوب، وكل حادثةٍ من حوادث الأحكام إلى النور المتلقّى من الفم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وقبول ما جاء به طيبةً به النفس، مستبشراً به القلب، مسلماً له تسليماً تامّاً لا حرج فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فهذا النبي الكريم العظيم ﷺ ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فهو أولى بنا من أنفسنا، وأبرّ بها منّا، وأرحم بنا، وأنصح لنا، وأعلم بمصالحنا.

فمتى علم المسلم أن هذا الأمر من الرسول ﷺ استسلم له وسلّم إليه، وانقادت كل ذرةٍ في قلبه إليه، ورأى أنه لا سعادة له إلا بهذا القبول والتسليم والانقياد.

(١) وانظر إلى كلام نوراني لابن القيم حول ذلك في رسالته: «زاد المهاجر إلى ربه».

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالطرق إلى الله كلها مسدودةٌ إلا طريق محمدٍ ﷺ، والهدايات كلها محجوبةٌ إلا هدايته ﷺ، فطريقه وحده هي السالكة، وطريقته وحدها هي المتَّبعة.

وكل الطرق الأخرى على تعددها وتنوعها وتشعّبها تنتهي إلى الخسران، وتلتقي في النار، وستكون عاقبة كل مَنْ سلك غير طريقه واتبع غير هديه الخسارة والحسرة، وسينطقون غداً كلُّهم بفمٍ واحد: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

ولذا فإن المؤمن لا تخلو حاله من هجرةٍ إلى الله: هجرةٍ مكانية، أو هجرةٍ سلوكية، أو هجرةٍ إيمانية، أو هجرةٍ نبوية، وستكون هِجيراه قولاً واعتقاداً: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩][1]، ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

(١) يُنظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم، ففيه بسط لهذا المعنى.

دروس الهجرة وعبرها

كانت هجرته ﷺ علامة فارقة في تاريخ الرسالة والرسول، وحدثًا عظيمًا نصر الملة، وأنهض الأمة، وشيد الدولة، وأسس نهضة بشرية كبرى أشاعت الإيمان، وبثت الحق والخير، ومكنت للعدالة والإحسان، ودحضت الكفر والفحش، وقاومت الظلم والفساد، وحجَّمت البغي والطغيان.

إضافة إلى تهيئتها الأمة لمرحلة جديدة من عمر الدعوة، عنوانها: إقامة مجتمع للإسلام والمسلمين تتحقق فيه حرية العبادة، والشعور بالعزة والكرامة، والتربية على الحق والخير، وبث الدعوة، والذود عن حمى الإسلام، ولزوم جماعة المسلمين وولايتهم، وتحجيم أثر المشركين، وتيسير مقارعة المبطلين بالنفس والمال.

وإن حدثًا عظيمًا، كانت تلك أبرز مقاصده الشريفة ومراميه المنيفة، وكان القائم به مقدم البشرية ورسولها الأعظم ﷺ، ومعه خير الناس بعد الأنبياء والمرسلين، لَهو جدير بأن يكون ممتلئًا بالكثير من الدروس، زاخراً بما لا يُحصَر من الهدايات والعبر.

ولعل من قليل ما يتسنى ذكره من ذلك ما يلي:

أولاً: أهمية قراءة السيرة النبوية قراءة تحقيق وتنقيح، وأن نأخذ هذه السيرة من مصادرها الموثوقة، من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ومن أخبار السير المقبولة غير المنكرة، وسنجد حينها أن أخبار السيرة تأتلف، وتؤدي دلالات متعاضدة، ولذلك فنحن في غنى عن التكثر بالأخبار الواهية والمنكرة، والتي فيها تهويل وغرابة، ومن ذلك مما يتعلق بالهجرة:

- القصةُ التي تروى عن تآمر قريش واجتماعهم في دار الندوة وأن الشيطان أتى إليهم بهيئة شيخ نجدي ودخل معهم وكل ما طرحوا رأيًا اعترض عليه، فاقترح أبو جهل أن يختاروا من كل قبيلة شابا جلدا يحضر بسيفه ثم يحاصرون بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الليل فإذا خرج ضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل، فزكى الشيخ النجدي هذا الرأي واتفقت قريش عليه وبناء عليه حاصرت بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليلاً، فألقى الله عليهم النوم، وخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بينهم ووضع التراب على رؤوسهم... إلى آخر القصة، فهي حكاية ضعيفة السند ومنكرة المتن؛ لأنه لا يتصور أن تجتمع رجالات من كل عشائر قريش ولا يعلم بنو هاشم بما عزموا عليه، ثم يَدَعُونهم يحاصرون بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأسيافهم، فيُسلمونه لهم، ولا يأتون لحمايته.

إن بني هاشم تعرضوا للحصار ثلاث سنوات هم وبنو المطلب من أجل حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فكيف يدعونه يحاصَر في بيته ويتعرض للقتل؟ إنَّ هذا لا يُتصَور في مجتمع عشائري، ثم كيف تقع معجزة بأنه يخرج أمامهم ويضع التراب على رؤوسهم ولا يرونه، ثم لا تشتهر هذه المعجزة ولا يتحدثون عنها.

ثم هل يتصور أن زعماء قريش يجتمعون في دار الندوة اجتماعاً سرّيّاً خطيراً لاتخاذ قرار خطير ثم يأتيهم أعرابي لا يعرفونه، فيُدخِلُونه معهم في هذا الحوار الخطير وينتهون إلى رأيه؟ فهذا لا يتصور من زعماء قريش وسادتها، بل لو جاء أحد لا يعرفونه فسيطردونه، ولن يسمحوا له بالتدخل ولا الدخول.

ثم مَن هذا الذي اكتشف أن هذا الشيخ النجدي هو الشيطان، فلا هو عرف بنفسه لهم، ولم يعرفه أحد منهم، وكل هذه دلائل النكارة والوضع[1].

- أو حكاية العنكبوت التي نسجت على باب الغار، مع أنهم خلال ثلاثة أيام كانوا يخرجون ويدخلون من الغار، فمتى نسجت هذه العنكبوت نسجها؟! ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر أنه أيّده بجنود لم تروها، وهم الملائكة وليس العنكبوت، فالذي منع المشركين من رؤية النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وصاحبه ودخول الغار ليست أموراً حسّيّة، بل هي أمور معنوية غيبية، وآية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ[2].

- أو حكاية أن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ لما قال له أبو بكر: «يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا»، فقال له النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «لَوْ جَاؤونَا مِن هُنَا لَذَهبنَا مِنْ هُنَا». فنظر أبو بكر فإذا الغار قد انفرج من الجانب الآخر، واتصل بالبحر، وسفينة مشدودة إلى جانبه[3].

(١) يُنظر: «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» لمحمد بن عبد الله العوشن (٧٢).
(٢) «ما شاع ولم يثبت في السيرة» (٨٢).
(٣) قال ابن كثير: لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف. «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ٢٠١).

ونحوها من الغرائب والمناكير، التي لا يصح لها سند، ولا تأتلف مع الأخبار الصحيحة، فإن في سيرة نبينا ﷺ من الإبهار ما يغني عن التكثر بمثل هذه الأخبار.

ثانيًا: هناك بعض الدراسات الحديثة التي يكتبها أناس لهم تأثر ببعض الاتجاهات المعاصرة، فيسقطونها على السيرة، كالمتأثرين بالموجة الاشتراكية اليسارية، فيعلِّلون رفض قريش لدعوة النبي ﷺ بأن هذا كان خوفًا أن يؤثر على مكانتها الاقتصادية، وأن قريشًا كانت تستفيد من الحج الوثني فإذا اتبع الناس دين النبي ﷺ فستخسر تجارتها. وهذا نوع من التفسير المادي للتاريخ، فقريش لم ترفض دعوة النبي ﷺ من منطلق تجاري، ولكن رفضته من منطلق ديني وثني، فهم متشبثون بعبادة الاصنام، ويرونها آلهة، ويرون أن ألوهيتها تستحق الجهاد والتضحية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [سورة ص: ٦]، فهم كانوا يُقابلون دعوة التوحيد بعصبية للوثنية، كما كانوا يتشبثون بموروث الآباء والأجداد ويقدسونه، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولا يصلح أن نطبّق التفسير المادي للتاريخ على السيرة النبوية.

وكذلك تقديم النبي ﷺ كزعيم عبقري، أو قيادي عسكري، أو مصلح اجتماعي، وكأن سيرته ﷺ سيرة نابليون أو تشي غيفارا، فإنّ هذا جور على السيرة، وانتقاص لمقام النبوة، ولكن ينبغي أن ننظر إلى السيرة على أنها سيرة نبي يوحى إليه، وأنَّه مبلِّغ للوحي عن الله عَزَّوَجَلَّ، وليس مجرد مصلح، ولا عبقري،

ولا زعيم، بل هو قبل ذلك كله ومع ذلك كله رسول الله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩][1]، فهذه قضية مهمة في تناول أحداث السيرة النبوية، ومنها أحداث الهجرة.

ثالثًا: الفترة المكية هي في مجموعها برهان من براهين الرسالة، ودليل من دلائل النبوة، فإن النبي ﷺ لقي طيلة ثلاث عشرة سنة أنواعا من الإيذاء الشديد من الحصار والإخراج من البلد، ومحاولة القتل، في صنوف من الابتلاء والشدة، ولو كان متقوّلاً مدّعيًا لكان بعض ما لقيه كافيًا أن يدع دعواه، ويستمتع ببقية حياته.

كما عُرضت عليه في هذه الفترة أنواع من الإغراءات الفاتنة، إن كان يريد مالا أو ملكًا أو نساءً فكانت كلها أشياء تافهة أمام ما يؤمن به ويدعو إليه، فأشاح عنها بإباء، ومضى في طريقه بثبات.

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلا على أن ذلك الزمن زمن نبي، لا زمن مَلِك أو سياسي أو زعيم؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت في قلب النبي ﷺ ليس يقين الإنسان من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه.

ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي ﷺ ليس رجل مُلكٍ، ولا سياسة، ولا زعامة، ولو أراد ذلك لأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة،

---

(١) يُنظر: «محمد ﷺ» د. مصطفى محمود (٨).

وليس رجل وطنه، غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الأرض؛ ولا رجل حاضره إذ كان واثقًا دائمًا أن معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه؛ ولا رجل الأرض في الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض[1].

رابعًا: أن النبي ﷺ قبل أن يهاجر كان قد أري دار هجرته، وعلم أنه سيهاجر، وعلم أين مكان الهجرة، ورآها في المنام، ورأى نخيلها وحرارها، وهذا موعود صادق من الله عَزَّوَجَلَّ، ومع هذا الوعد اليقيني الصادق من الله عَزَّوَجَلَّ له، فإنه لم ينتظر هو ولا أصحابه معجزة خارقة تحقق لهم ذلك، ولكنك تجد دقة في الإعداد مع استفراغ الوسع، وأخذ الأسباب، واستيفاء الاحتياطات، وإذا قرأت السيرة، ونظرت في تدابير النبي ﷺ يظهر لك أنه لم يدع سببا من الأسباب إلا استوفاه، من شدة استفراغه لها، بحيث لا يمكن لأحد أن يتتبع إعدادهم فيقول: لو فعل كذا ولم يفعل كذا، ثم إذا رأيت سكينته وقوة توكله ظننت أنه لا ينظر إلى الأسباب ولا يعتبرها[2].

وفي استيفاء النبي ﷺ للأسباب واستفراغه الوسع توجيه لأمته، لأننا نعيش في نظام السنن الكونية وعالم الأسباب الذي أمرنا باستيفائه، وقد شاء الله أن يجري أمر هذا الدين، بل أمر الكون كله، على السنن الجارية، وليس على الخوارق. فلا يعتذر متقاعس بأن الأوائل نُصروا بخوارق، ولم تعد الخوارق تنزل بعد ختم الرسالة وانقطاع النبوات[3].

---

(١) «وحي القلم» للرافعي (٢/ ١٧ ـ ١٨).

(٢) من إفادات شيخنا جعفر شيخ إدريس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) «واقعنا المعاصر» محمد قطب (٤١٤).

ومن استيفاء النبي ﷺ للأسباب في هجرته، وقوة إعداده التي أُمر بها:

١ـ كتمانه ﷺ خبر الخروج للهجرة، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه تفاجأ بالخبر!

٢ ـ خروجه ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر في نحر الظهيرة[1]، وهو وقت اشتداد حرِّ الشمس اللاهب، حيث يكون الناس في بيوتهم، وليس في الطرق أحد، وكان متلثّمًا حتى لو رآه أحد لم يعرفه، وهذا من شدة الاحتياط.

٣ ـ خروجه ﷺ باتجاه جنوب مكة على طريق اليمن، ولم يخرج باتجاه شمال مكة على طريق المدينة كما هو المتوقع.

٤ ـ دخوله ﷺ في غار ثور، ومكثه فيه ثلاثة أيام؛ ليهدأ الطلب، وتسكن شدة البحث عنه ﷺ.

٥ ـ الاستعانة بعبدالله بن أبي بكر الصديق يأتيهم بأخبار قريش في تلك الأيام الثلاثة التي قضاها في الغار فكان بمثابة جهاز التنصت والاستخبارات، وكان عامر بن فهيرة يتعاهدهم بالطعام، ويعفي على آثار عبد الله بن أبي بكر حين يعود من الغار ويدخل مكة.

٦ ـ سلوكه طريق الساحل إلى المدينة، وهي طريق غير مألوفة؛ ليتجنب ﷺ الرّصد أمامه والطلب وراءه.

٧ ـ الاستعانة بماهر خبير في معرفة الطُرق الخفيّة، وهو عبد الله بن أُريقط الدِّيلي؛ لأنهم سلكوا طريقًا غير معروفة، فاستعان بماهر خبير في الطرق.

---

(١) نحر الظهيرة هُوَ حِينَ تَبْلُغ الشمسُ مُنْتُهاها مِنَ الإرتِفاع، كَأَنَّهَا وصَلَت إِلَى النَّحْرِ، وَهُوَ أَعْلَى الصَّدْر. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٢٧).

٨ ـ قوله ﷺ لسراقة: «**عمِّ عَنَّا**»، فحوَّله ﷺ من طالب مُطارِد إلى حارسٍ للطريق، ومشوِّش على عيون البحث والطلب[١].

ولما استفرغ النبي ﷺ جهده في اتخاذ الأسباب، جاءه موعود الله بمعجزات استثنائية، فيُصْرف الذين وصلوا إلى الغار مع أنهم قد وقفوا عنده، لأن الله عَزَّوَجَلَّ أحاطه ونصره، فمعية الله وحمايته هي التي جعلت هؤلاء يطوفون حول الغار ويرجعون من غير أن ينظروا فيه أو يدخلوا إليه.

وفي الطريق ساخت قوائم فرس سراقة في أرض صلبة، لتعوقه عندما تبعهم، وأراد الظفر بهم، فعلم أن هذه دعوتهم، وحماية الله لهم.

إن النبي ﷺ استفرغ الجهد واستوفى الأسباب وأجراه الله عَزَّوَجَلَّ وفق السنن الكونية، فقطع الطريق في المدة المعتادة، وسار ثمانية أيام كما يسير أي مسافر غيره، ولم يحمله البراق الذي قطع به الطريق بين مكة وبيت المقدس، لأن الهجرة سير في عالم الأسباب.

كان ﷺ متصلا بالله ضارعـًا إليه معتمداً عليه، لكنه لم ينس لحظة أن هذا التوجه إلى السماء يجب أن يقترن بثبات الخُطا على الأرض، بما ينسجم مع قدر الله ونواميس كونه، فهو في تواصل دائم بين عالم الغيب البعيد وعالم الشهادة القريب، وبدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادّة ولا مصير عظيم[٢].

(١) يُنظر: «فتاوى السيرة» للشيخ أحمد بن غانم الأسدي.

(٢) «دراسة في السيرة» د. عماد الدين خليل (١٢٧).

ولذلك فنحن اليوم ينبغي أن نسير في جهادنا ودعوتنا وفق عالم الأسباب، ونعلم أن المعجزات ذهبت مع الأنبياء، وأننا نبذل جهدنا بحسب وسعنا، والله عَزَّوَجَلَّ يتولى أمر دينه، ولم يأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بمغامرات غير محسوبة ولا باقتحام الهلكات، وإنما تعبَّدنا بحسب وسعنا، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ونحن مطالبون بتحقيق الإصلاح في أفق استطاعتنا؛ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

خامسًا: إذا نظرت إلى سيرة النبي ﷺ في المدينة وسيرة أصحابه معه ستلاحظ أن لديهم لياقة عالية في استئناف الحياة، فلا تجد أن النبي ﷺ قضى عشر سنوات في المدينة وهو يسترجع ذكرياته في مكة التي قضى فيها ثلاثا وخمسين سنة من عمره، ولا تجد في حديثه في المدينة اجتراراً لذكريات أيامه، وأحداث حياته في مكة، وكذلك الصحابة أخذوا منه هذا المعنى فلا تجد في حياتهم في المدينة الكلام عن ذكرياتهم في مكة واستعادة الماضي وتذكر الذكريات. وإنما الذي حصل في المدينة قدرة عالية على استئناف الحياة بحيث أصبح نظرهم متجهًا إلى الأمام، من غير التفات إلى الوراء. وهذا هو الذي أعطى الدافعية للانطلاق بالدعوة والرسالة.

ثم كان من تربية الله عَزَّوَجَلَّ لصحابة النبي ﷺ -المهاجرين- أنه بعد فتح مكة، حُرِّم عليهم أن يرجعوا إلى مكة فيستوطنوها، ولذلك لم يرجع أحد من المهاجرين إلى مكة، بل لم يستردوا دُورَهم التي صودرت منهم، ولم يطالبوا بها، ولما نزل النبي ﷺ في مكة بعد الفتح نزل في وادي الأبطح، قالوا: ألا تنزل منزلك من شعب بني هاشم؟

فقال ﷺ: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مَنْزِلًا؟**». وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته في مكة[1]، فلم يعد إليها النبي ﷺ، ولم يستردها.

ولِذا فإنّا نجد الصحابة الذين كانوا في المدينة مع رسول الله ﷺ يجمعهم مسجد واحد وقد تناثرت قبورهم في القارات الثلاثة -آسيا وإفريقيا وأوروبا- وقضوا بقية حياتهم إلى آخر رمق، مع مشروعهم الذي انطلقوا به، منذ دخلوا في الإسلام، وهو بلاغ رسالات الله وأداء ما أدّاه إليهم رسول الله ﷺ، فهم ورثته وحملة رسالته.

ولذلك أوصي نفسي وإخواني الذين قدر الله عليهم الاغتراب والهجرة عن أوطانهم لأي سبب اضطرهم لذلك، أن ينظروا إلى المستقبل فيعملوا فيه وله، وإياك إياك واجترار الذكريات والعيش في الماضي، والانشغاف بالعودة، فلا يستطيع مهاجر أن ينجز إنجازا وهو يرسف في قيود الماضي، وإنما أصحاب الإنجاز من لديهم اللياقة لاستئناف الحياة. فحيثما كنت أنجز مشروعك، وانطلق برسالتك، وحقق أهدافك، وانظر إلى الأمام، والله يعينك ويسددك.

سادسًا: كم يدهشنا هذا البذل العظيم من الأنصار رضي الله عنهم حيث حولوا بلدهم إلى قاعدة لرسالة رسول الله ﷺ، وتنازلوا عن كل الزعامات القبلية، وجعلوا الرسول ﷺ زعيمهم وإمامهم، وآووا إخوانهم المهاجرين وواسوهم في دورهم وأموالهم، وقدموا صوراً لا يوجد لها نظير عند البشر في إيثار المهاجرين،

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٨)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ١٣٦).

فهذا سعد بن الربيع الأنصاري يقول لعبد الرحمن بن عوف: «مالي سأقاسمك إياه، ولي زوجتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها وتزوجها»، فيقول له عبد الرحمن بن عوف: «بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكنْ دلني على السوق»[1]. فالتقى إيثار سعد بن الربيع بِعِفّة عبد الرحمن بن عوف وجِدِّيّته.

وبعد فتح ديار بني النضير أصبحت نخيلها كلها فيئا لرسول الله ﷺ يقسمها كيف يشاء، لأنها مما لم يقاتل المسلمون عليه، ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، فعرض النبي ﷺ على الأنصار أن يقسمها على المهاجرين الذين لا زالوا فقراء في المدينة، ويردوا على الأنصار ما كان الأنصار واسوهم به من نخيلهم، فماذا كان جواب الأنصار؟

لقد قالوا: «يا رسول الله، بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها»[2].

إنّ هذه نفوس ملائكية، ليس فيها شهوة طمع ولا استئثار ولا شح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ولم يكن لذلك أي مقابل ينتظرونه إلا ما وعدهم به الرسول ﷺ يوم بيعة العقبة أن لهم الجنة، فهي الجزاء الذي كانوا ينتظرونه ويعملون له.

سابعًا: مشهد وفاء النبي ﷺ للأنصار؛ فبعد فتح مكة، آمنت قريش، وازدحموا عند النبي ﷺ يبايعونه على الإسلام، والأنصار يحفون بالنبي ﷺ،

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٣٧).

(٢) «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (٩/ ٢٨٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٧).

فرأى الأنصار فرح النبي بإسلام قريش، وصفحه عن كل عداواتها السابقة، فجعل بعضهم يلتفت لبعض ويقول: «كأن الرجل أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته»، تسرب إلى نفوسهم خواطر غَيرةِ المحب فخافوا أن يبقى النبي ﷺ في بلده، ومع قومه ولا يعود معهم، وسبب ظنهم ذلك شدة حبهم للنبي ﷺ، فنزل الوحي على النبي ﷺ يخبره بمقالتهم، وما جال في خواطرهم، فدعاهم النبي ﷺ وقال لهم: «**مَا مَقَالَة قُلْتُمُوهَا؟**». وكان الأنصار قوما صُدقا، فقالوا: «يا رسول الله قلنا أما الرجل فقد أدركته رأفة بعشيرته ورغبة في قريته»، فقال النبي ﷺ: «**فَمَا اسْمِي إِذًا؟**»، أي: أن اسمه محمد، فلا يأتي إلا ما يُحمَد، ثم قال: «**لَا، بَلِ المَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»، فلما قال ذلك، انهار الأنصار عاطفيا وأجهشوا بالبكاء وقالوا: «يا رسول الله ما حملنا على ذلك إلا الضِّنّة برسول الله ﷺ» -فما فكرنا هذا التفكير إلا من شدة حبنا لك وخوفنا من فقدك-، فقال لهم النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ**»[1].

وعندما قسم غنائم حنين فآثر بعض المؤلفة قلوبهم من زعماء قريش في العطاء ليتألف قلوبهم ويستل ضغائنهم، وجد بعض الأنصار في نفوسهم، وقالوا: «يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ الله ﷺ، يعطي قريشًا ويدعُنا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ». فبلغت مقالتهم النبي ﷺ فجمعهم ثم خطبهم فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟**»، فَقَالَ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: «أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ الله فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ الله ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ؟» فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

«**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ؟**»، قَالُوا: «صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: «**أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟**» قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»، قَالَ: «**وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟**» قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»، قَالَ: «**وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟**»، قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ». كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟**». قَالُوا: «وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ الله؟، وَلله وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ»، قَالَ: «**أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ**». فَقَالُوا: «بَلْ لله الْمَنُّ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا لِأَنَّهُمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَالله لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِنِسَاءِ الْأَنْصَارِ وَلِمَوَالِي الْأَنْصَارِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ**[1]». فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: «رَضِينَا بِرَسُولِ الله قَسْمًا وَحَظًّا»[2].

---

(١) الشِعَارِ: هو اللباس الذي يلي الجسد، ويباشره، فهو الأقرب للابسه، والدِّثار هو الغطاء الذي يكون فوق الشِّعار، ومعنى ذلك أن الأنصار هم الأقرب إليه، والمباشرون له، ثم الناس من بعدهم.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٧٨، ٤٠٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٩).

وعندما عاد النبي ﷺ من حجة الوداع، عاد إلى المدينة ومعه زحوف من القبائل التي تسكن شمال مكة، وكل قبيلة إذا حاذت منازلها تودع النبي ﷺ وتتفرق عنه يمينا ويسارا، ولم يبق مع الرسول إلا الأنصار، هم الذين ساروا برسول الله ﷺ يحوزونه إلى بيوتهم، إني أتخيل الأنصار والمدينة تتراءى لهم، والرسول بينهم، تذكروا أن كل تلك القبائل كانت تتمنى أن يذهب الرسول معها، لكن النبي ﷺ لم يختر غيرهم صحبًا، وغير بلدهم بلداً، ما شعورهم عندما عادوا برسول الله ﷺ حتى أولجوه بين بيوتهم؟ ثم بعد ثلاثة أشهر يموت ﷺ بين ظهرانيهم ويكون مثواه أرضهم وبلدهم.

ثامنًا: أن الهجرة عندما تُذكر، فإنها تذكِّرنا بفضيلة أبي بكر الصديق الذي اختاره النبي ﷺ من بين كل الناس ليكون صاحبه في هذا المسير، والذي زكاه الله عندما جعله ثاني اثنين وسماه في القرآن صاحبه: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، ثاني اثنين (محمد وأبو بكر) لا ثالث لهما، و كل واحد منهما يصدق عليه هذا الوصف (ثاني اثنين)، وسماه صاحبه، فأي شرف أشرف من هذه الإضافة؟ وأي تزكية أعظم من هذه التزكية؟!.

إن إشارة القرآن إلى صحبته في الغار وسام شرف خالد ما بقي الليل والنهار، في آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

إن أبا بكر الذي فرح بهذه الصحبة فرحًا انفرط به بكاءً لما اختير لها، إنما اختار بذلك أخطر مسير في الهجرة، وهو المسير الذي سيسير فيه مع النبي ﷺ، ويعلم أن قريشًا ستطلبه لتقتله معه لو ظفرت به، ولِذا جعلت دية أبي بكر مئة من الإبل لمن يقتله أو يأسره، كما جعلت مثلها لمن يقتل النبي ﷺ أو يأسره، ومع ذلك يقتحم أبو بكر هذا الخطر بكل هذا الشوق والفرح.

ثم إن أبا بكر المهاجر مع رسول الله ﷺ قد استنفر أهل بيته معه في الإعداد لهذه الهجرة، فابنتاه تعدان زاد السفر، وابنه يتحسس لهم الأخبار، ويوافيهم بتطورات موقف قريش، ومولاه وخادمه عامر بن فهيرة يسير بالغنم حولهم، ليُعفي آثار الأقدام، ويزودهم باللحم واللبن، فأُسرةُ أبي بكر كُلُّها مشاركة في رحلة الهجرة، وقد تقاسمت الأدوار، وتحملت المهمات، فظفر أبو بكر بهذا الشرف، وحاز كلَّ هذا الفخار.

فيا لله! مَن ذا سيدرك يومًا من أيامه أو موقفا من مواقفه؟! ولِذا بقي لأبي بكر في نفس النبي ﷺ مكانة لا يدانيه فيها أحد من أصحابه، وعندما حصلت خلاف بينه وبين عمر رضي الله عنه غَضِب له النبي ﷺ غضبًا شديداً وتمعّر وجهه، وقال: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْت: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ. وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُون لِي صَاحِبِي؟**»[1].

(١) «فضائل الصحابة» للإمام أحمد (٢٩٧)، و«صحيح البخاري» (٤٦٤٠).

وكم تخيلت شعور أبي بكر؟ عندما عاد مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع من مكة إلى المدينة، ما الفرق بين ذاك المسير وهذا المسير؟ وكأنّ كلّ مكان في الطريق، وكل سهل وجبل يمرّان به يذكرهما بمسيرهما فيه قبل عشر سنين.

يا لله! كانا يمران منه مطاردين حذرين، والآن يسيران فيه آمنَين مطمئنَّين، وقد أسلمت الجزيرة العربية كلها، ووطئت أكنافها، وها قد صدق اللهُ رسولَه ما وعده فأظهر دينه على الدين كله.

إنَّ كل خبر من أخبار الهجرة يستنطق ألسنتنا لنقول: رضي الله عن شيخ الإسلام والمسلمين، صِدِّيق هذه الأمة، أبي بكر الصديق.

تاسعًا: يظهر في مشاهد الهجرة فضل الصحابة رضي الله عنهم وعِظم عطائهم للدين، ويقينهم بما عند الله، فالمهاجرون تخلَّوا عن ديارهم وأموالهم وقرابتهم، وهاجروا في ذات الله ورسوله، والأنصار آووا ونصروا وبذلوا وآثروا، ولِذا ذكر الله هاتين الصفتين للفريقين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨، ٩]. وأن هذا الجيل هو الجيل الذي اصطفاه الله ليكون في صحبة نبيّه، وليكون انتشار الدين وبلاغ الرسالة على يديه، كما قال عبد الله بن مسعود: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ،

ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ»[1].

ولِذا فإن محبتهم من محبة النبي ﷺ، ومعرفة أقدارهم من تعظيم الدين الذي بذلوا له حياتهم وأموالهم وديارهم.

عاشراً: تواضع الرسول ﷺ لربه واستشعاره عظيم فضله، فهو الذي خرج من مكة مستخفيـًا، ساربـًا من الغار في ظلمة الليل ليس معه إلا صاحبه الصديق أبو بكر.

ثم بعد ثمان سنين يدخل مكة فاتحـًا جهاراً نهاراً حوله عشرة آلاف سيف، وهذه لحظة تطيش فيها العقول زهوّاً، وكم استخفت نشوة النصر أحلام الرجال، ولكن النبي ﷺ دخل مكة متواضعـًا مخبتـًا، مطأطئ الرأس متخشعـًا لله، حتى إن جبينه المقدس ليمسّ مقدَّم رحله من شدة خفض رأسه[2]، وهو يقرأ بترجيع وترعيد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١][3]، إنه بلسان الحال يقول: يا رب، ما أنا افتتحت ولكن أنت فتحت، وما أنا انتصرت ولكن أنت نَصَرْت، وما أنا أصبت ولكن أنت رميت، فسبحانك ربي ولك الحمد، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

وفي هذا علاج للعُجب الذي يسرب إلى القلوب مع كل عمل صالح ييسره الله ويفتح به، فلتتذكر أن كل ذلك محض رحمة الله وفضله، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

(١) «مسند أحمد» (٣٦٠٠).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٣٣٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

حاديَ عشر: لم يكن بين خروج النبي ﷺ من مكة مهاجرا ودخوله إليها فاتحا إلا ثماني سنين، وسجل العداوة من قريش زاخر بمتواليات من العداوة والإيذاء ومحاولة قتله والقضاء على دعوته، ثماني سنوات لن تمحو من الذاكرة مرارة الإخراج من الوطن، ولا الخروج بطراً ورئاء الناس يوم بدر، ولا مصرع أصحابه بين يديه في أحد، ولا تحزّب قريش للأحزاب في الخندق حتى بلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك ما إن دخل مكة فاتحاً حتى طوى كلَّ ذلك وجعله وراء ظهره، واستقبل بقريش مرحلة جديدة أعلن فيها العفو العام عن الجميع: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»(١)، ثم لم يُذَكِّرْ أحدا بسابقته، ولم يحاسب أحدا بذنبه، وإنما كان صفحُه ﷺ صفحاً جميلاً، لم يخالطه تثريب ولا عتاب، ولم يتبعه مَنٌّ ولا أذى، بل جعل يتألفهم ويستل سخائم قلوبهم، فلم تكن أولويته الانتقام، ولكن الهداية والاستنقاذ.

إن شهوة الانتقام من الأعداء شهوة عارمة تُعمي وتصمّ، ولكنَّ هدف الهداية والاستنقاذ كان أقوى منها في نفس رسول الله ﷺ، ولِذا غمره الفرح والسرور لما جاءت قريش تبايعه على الإسلام، حتى ظنّ الأنصار أنه لشدة ما رأوا من سروره بهم سيبقى عندهم، ولن يرجع إلى المدينة، وسرت إلى نفوسهم غيرة المُحِبّ، وما ذاك إلا لِما رأوا من فرحه بهداية قومه بعد ضلال، ورشدهم بعد غواية.

لقد كان هدف الهداية للبشرية هو الهدف الذي يقود الأهداف، ولم يكن يحرف النبي ﷺ عنه شهوة انتقام أو سَورة غضب، فصلى الله على مَن أرسله ربه رحمة للعالمين كلِّ العالمين.

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٢٧٥ - ١٨٢٧٦).

ثاني عشر: وكان أول مشروع بدأ به النبي ﷺ بعد قدومه هو بناء المسجد، فلم يأتِ إلى قباء ليتخذ فيها جِنَانًا وبساتين -وقد كانت أرضًا ذات زروع ونخيل-، ولا أتى إليها ليبتني فيها قَصراً، وقد كانت بلاد حصون وآطام، لأنَّ مُهمَّة هذا النبي ﷺ ورسالتهُ هي صِلة الخلق بالخالق، وتوجيه البشرية إلى بارئها.

ومن دلالات بِناء المسجد: أن النبي ﷺ كان يُشارك في بنائه، فكان ﷺ يحمل الحَجر، فيقول من يراه من الصحابة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، دَعني أحملهُ عنك، فيقول النبي ﷺ: «**دَعْهُ، وَاحْمِلْ غَيْرَهُ**»[1].

إنه بناء فريق، والنبي ﷺ يُقدِّم القُدوة، ولا يقول لهم: «ابنوا»، بل يحمل هو الحجر فيحملون، ويبني فيبنون.

وكذا عندما وصل المدينة ونزل على أبي أيوب بدأ ببناء المساجد قبل بيته، فاشترى المكان الذي بركت فيه ناقته، واستنفر الصحابة للعمل في البناء، وكان أعظم استنفار لهم أنه ألقى رداءه وصار يعمل معهم، فلما رأوه يحمل اللَّبِن ويعلوه التراب جعلوا ينشدون:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلَّلُ[2]

حتّى تمّ بناء المسجد ليكون مشعّ النور والإيمان في المدينة، ففيه يُذكر اسم الله ويجتمع المسلمون في الجُمَع والجماعات، ويرون فيه صلاة رسول الله ﷺ ويستمعون إلى قراءته ويجلس فيه ويجلس إليه أصحابه معلّمًا ومذكّراً.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٨٠١، ٨٠٢)، و«الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٣٤٨٨)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٧٧١٣).

(٢) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩٦).

شتّان بين جلوس النبي ﷺ في المسجد المُشرَع الأبواب يقصده كل أحد، ويجلس إليه كل أحد، وبين استتاره في مكة مع أصحابه في دار الأرقم بمكة على خوفٍ من قريش ومَلَئِهم.

وسرعان ما غدا المسجد رمزاً لما يتّصف به الإسلام من شمولية وتكامل، فلقد غدا مركزاً روحيًا لأداء العبادة وإقامة الشعائر، ومجلس علم وتعليم، وملتقى الصحابة بالنبي ﷺ، وهو بَهْو استقبال الوفود، ومأوى الغرباء وأضياف الإسلام، لقد كان المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة، وأداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة، ولم يكن المسجد معبداً لإقامة الصلاة وحدها، بل كان شأنه شأن الإسلام متكاملاً في مختلف جوانب الحياة[1].

ثالث عشر: كم يشدّني ويؤثر في وجداني مشهد إسلام وفد الأنصار الأول عند لقائهم بالنبي ﷺ، أهكذا في جلسة واحدة عرض عليهم الدين فعرفوا أنه الحق واتبعوه وآمنوا به وأصبح إيمانهم نقلة في التاريخ كله، بينما قومه قريش بقي بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، وهو الذي نشأ بينهم، يعرفون طفولته، وشبابه، ومراحل حياته، وما جربوا عليه كذبا، ومع ذلك لم يسلموا وأسلم هؤلاء!؟.

(١) «دراسة في السيرة» د. عماد الدين خليل (١٤٩).

ومثل ذلك أن يأتي أبو ذر من قبيلة غفار ويسلم، ويأتي عمرو بن عبسة من قبيلة أسلم فيسلم، ويأتي الطفيل بن عمرو من قبيلة دوس، وكل هؤلاء كان إسلامهم في أول مجلس وأول لقاء، في حين أنّ أهل بلده الذين نشأ معهم وهم أعرف الناس به يتمنع زعماؤهم وجمهورهم عن الإسلام.

رابع عشر: إن الأوس والخزرج أسلموا بناء على معلومة أخذوها من اليهود، ولكن مَن أعطى هذه المعلومة وبشّر بها حُرموا الهداية ولجّوا في الحسد والغواية، وعندما أتى النبي ﷺ إلى المدينة قال الأنصار لليهود: «هذا النبي الذي كنتم تحدثوننا عنه». فقالوا بغيا واستكبارا: «ليس هو». لأنهم يريدون أن يكون إسرائيليّاً منهم، وإلا فعلماؤهم علموا أنه هو النبي كما أخبر عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أسلم وكان من أحبار اليهود(١).

وهذا يؤكد لنا أن الهداية هبة من الله، يهبها الله لكل مَن صَدَق في طلبها ويحرمها من أعرض عنها. كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن القرآن: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وهذا الذي يبين لنا كيف أننا في كل يوم نسأل الله ما لا يقلّ عن سبع عشرة مرة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، لأن هذه الهداية هبة وتوفيق من الله، ولِذا نستشعر عظيم منة الله علينا بالهداية، فنمتن لله بها، ونسأله الثبات عليها.

خامس عشر: بقاء هذا الدين بحفظ الله، فهل يظن من يراقب خروج النبي ﷺ مستخفيًا في الظلام من مكة أنه سيعود إليها فاتحًا بعد ثماني سنوات،

(١) يُنظر: «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٥).

وأن جزيرة العرب كلها ستدين له، وأن هذا الدين سيضيء شرق الأرض وغربها، وكلما مرّت به أزمة يُظن أنها ستطوي بساطه وتطفئ ضياءه إذا به يتجدد وينبعث ويظهر ضياؤه مُمَزِّقًا كل ظلمة.

وإذا نظرت إلى تاريخ الإسلام وجدت شدائد وأزمات مرت به، كلّ واحدة توحي لمَن يراقبها بأن هذه لحظة الانطفاء والقضاء على الدين وأهله، هل تخيلت عندما جاءت زحوف التتار كالإعصار المدمِّر وحواضر العالم الإسلامي تتساقط واحدة تلو الأخرى حتى سقطت بغداد حاضرة الخلافة وعاصمة الدنيا، وكان الصليبيون حينها يأتون زحوفا من الغرب، ماذا سيقول مَن يراقب هذا المشهد، ويعيش هذه المأساة إلا أن بساط الإسلام قد طُوي وتُوُدِّع من أمته؟!.

ثم يفاجأ أن هذه الأمة استعادت عافيتها وفتحت القسطنطينية وحاصرت فينّا، وتحول المغول من همج غزاة إلى مسلمين مجاهدين فاتحين.

ولو نظرت قبل مئة عام إلى العالم الإسلامي لوجدته محتلًّا من شرقه إلى غربه، ولم يبق منه إلا رقعة الجزيرة العربية، ومع هذا الاحتلال الأجنبي كانت الأمية والجهل بالدين وفشو الخرافة، ثم أعقبتها تيارات الشيوعية والقومية والعلمانية والإلحاد التي اجتاحت الشباب حتى أقفرت المساجد فليس فيها إلا شيوخ في ذبالة أعمارهم، وكانوا في بعض البلاد يبكون ويقولون: مَن سيصلي علينا إذا متنا؟! وكأنما هم البقية الباقية، فمَن سيعمر هذه المساجد إذا ماتوا، ومَن سيكون للدين إذا ذهبوا؟.

ثم إذا بنا نرى هذه اليقظة المباركة والأوبة الراشدة فإذا المساجد تكتظّ بالشباب وإذا حفظة القرآن هم الشباب، وعمّار المساجد هم الشباب، والعاملون للدين والمنافحون عنه هم الشباب، أين الجهود التي بُذلت والأموال التي أُنفقت للصد عن دين الله؟! كل ذلك ذهب هباءً وأعقب حسرة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

إن هذا كله ينبغي أن ينزع من نفوسنا القلق على هذا الدين، فالله الذي أنزله هو المتكفل بحفظه، أما الذي ينبغي أن يقلقنا فهو ماذا فعلنا نحن وماذا قدّمنا لدين الله عَزَّوَجَلَّ؟ وهل سنلقى الله وقد قدمنا لدينه قليلا من كثير؟.

سادس عشر: هناك المشهد الذي لابد أن نقف معه وهو مجيء العباس مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وحرصه على شهود هذه البيعة وإحضار النبي له وهو لا زال مشركًا على دين قومه، فقد كان ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ توقيرا له، وإشعاراً له بالمسؤولية، وأنه لم يتخذ هذا القرار في غيبته بل إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان ساكتًا، والذي بادر بالكلام والاستيثاق هو العباس، فكأنه في مقام الوالد ومكانته، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»**[1].

وهذا يلفت نظرنا إلى معنى مهم وهو طريقة التعامل مع المخالف في الدين، فالمخالف في الدين ليس مصنفًا في خانة الأعداء دائمًا، فقد يكون عدوا، وقد يكون محايدا وقد يكون متعاطفا. وينبغي أن يكون التعامل معه على حسب حاله التي هو فيها.

(١) «صحيح مسلم» (٩٨٣).

فإذا كان في مرحلة التعاطف أو الحياد فله تعامل خاص، وإذا كان في خانة العداوة فله تعامل آخر، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، والبر هو البذل والعطاء والإحسان، والقسط هو العدل وعدم الظلم، وهنا نجد أن النبي ﷺ استفاد من تعاطف المتعاطفين معه من المشركين، مثل المطعم بن عدي، حيث دخل ﷺ إلى مكة بجواره عندما عاد من الطائف، وحفظ النبي ﷺ له هذا الموقف فقال يوم بدر: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي الأسرى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»(١).

وهذا المعنى تجده متكرراً في السيرة النبوية، فالمخالف إذا لم يكن في خانة العداوة فإن التعامل معه يكون بالتعايش والإحسان والوفاء، ولا يمكن أن ينتشر الدين إلا بالتعايش مع الناس وحسن التعامل معهم، حتى يعرفوا هذا الدين من خلال المعاملة والتواصل المباشر، وإذا قرأنا السيرة وأحداث الهجرة فينبغي أن نقف مع مثل هذه المواقف ونتأمل في دلالتها.

وقد رأينا أمثلة إنسانية من تعاطف المنصفين في الغرب ضد ما جرى من إجرام الصهاينة وعدوانهم على أهلنا في غزة في أحداث (٢٠٢٣-٢٠٢٥م).

سابع عشر: ينبغي فهم قوله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]في مثل هذا الموقف وموقف موسى عندما قال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وفعل إبراهيم عندما ترك هاجر وابنها في وادٍ خلاءٍ غير ذي زرع، وأخبر أن الله أمره بذلك،

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣١٣٩).

وأنه لا يضيعهم، وهو أن هذا كله كان بأمر الله ووحيه، وتلقاه رسل الله بتسليم ويقين، فالفعل بأمر الله، ولذلك فالله هو الضامن، كما في قصة موسى وإبراهيم، ولو أن أحداً فعل هذا بدون أمر الله لكان مفرّطاً، فلو أن أحداً فعل فِعل إبراهيم فترك زوجته وأبناءه في صحراء لكان آثماً مفرّطاً، ولو أن أحداً سار كما سار موسى إلى طريق مغلق يحجزه البحر لكان ملقياً بنفسه ومَن معه في الهلكة، ولو أن أحداً كان في الغار في مثل حال النبي ﷺ ثم سمع أصوات مَن يطاردونه ورأى أقدامهم فمن المتوقَّع أن يخاف، ويوقن بالهلكة، فليس بعد الوصول إلا الدخول.

ولكن أنبياء الله فعلوا ما فعلوه بأمر الله ووحيه، ولِذا كانوا على غاية اليقين بالله والتسليم له، والإيمان بأن الله لا يمكن أن يأمرهم ثم يسلمهم، فهو عَزَّوَجَلَّ له الخلق والأمر، وإذا أمر فإن نواميس الكون كلَّها خاضعة لأمره ومشيئته.

وشتّان بين ما يفعله أنبياء الله بوحي من الله وضمانة منه وما يفعله مغامر متعجل يلقي بنفسه وغيره في مواجهة غير مدروسة من غير استعداد يليق بها، ثم يقول: إن الله معنا. وينتظر أن يغيّر الله نواميس الكون وسنن الخلق لعجلته، فإن الله لا يَعجَل لعجلة أحد.

ثامن عشر: قال محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وقال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فالنبي ﷺ أضاف أبا بكر إلى نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ لأن أبا بكر تابعه بيقين وإيمان وانقياد صادق، أما موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ ولم يضف بني إسرائيل معه، لأن اتباعهم لم يكن بالإيمان الراسخ ولا المتابعة التامة، فقد عالجهم أشد المعالجة، وكابدهم أشد المكابدة،

وهل أعظم من أن يعبر بهم البحر فيقولوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ؟! وأن يغيب عنهم فيتخذوا العجل من بعده؟! وهذا يبيّن فضيلة الصِّدّيق بخاصة، وفضيلةَ الصحابة بعامة، وفضلهم على أتباع الرسل قبلهم، ولياقتهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس.

تاسعَ عشر: بقاؤه ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة لم تكن هدراً لعمر الدعوة، ولا وقوفاً في حالة انتظار، ولم يكن الصبر في مكة ذلك الصبر السلبي بلا عمل، ولكنه صبر الجدِّ والجهد المتواصل، ففي مكة كانت تربية الجيل الذي تأهّل لحمل الرسالة، وتحمل المهمة.

وكانت مدة البقاء في مكة مرحلة تمدد الجذور ورسوخها، وتعميق الإيمان في النفوس وتربيتها، فقد لبث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة لا يبغيه قومه إلا شراً، على أنه دائبٌ يَطلب ثم لا يجد، وَيَعرِضُ ثم لا يُقبل منه، ويجهد ثم لا يتخونه الملل، ويستمر ماضياً لا يتحرف، ومعتزماً لا يتحول، أليست هذه هي أسمى معاني التربية، أظهرها الله كلَّها في نبيه، فعمل بها وثبت عليها؟! أفليس في هذا تربية وتعليم للمسلمين الذين معه ليرَوا كيف يجب أن ينشأ المسلم؟! وغناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلد، وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟!

وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا، الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت

عليها النفس، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على محض الخير وإن ردوا بالشر[1]، ولِذا فإن السابقين إلى الإسلام في مكة والذين عبروا معه شدائد تلك المرحلة كانوا يتلقون تربية فردية خاصة يبنيها النبي ﷺ في نفوسهم لبنة لبنة، ويتعاهدهم ساعة بساعة، وكان معهم يلاحظهم ويتابعهم، فلكل منهم عناية خاصة وحديث خاص، وساعده على ذلك قلة عددهم، وأن الأحداث في مكة كانت بطيئة متشابهة، وهذا ما مكنه ﷺ أن يفرغ لهم، ومكنهم أن يعوا ما يتلقونه منه[2]، ولِذا صاروا نمطًا فريداً وجيلاً متميّزاً، وبقي هؤلاء في المقدمة في أطوار الدعوة المتتابعة كلِّها، فالعشرة المبشرون بالجنة منهم، والخلفاء الراشدون منهم، فهم حجر الأساس في البناء والجذر العميق الراسخ في الأرض، ثم كانت المرحلة المدنية، مرحلة البسوق وتفرع الأغصان، وإثمار الشجرة، فإذا هذه الكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

كما أن سنوات الدعوة في مكة لم تكن خاصة بأهل مكة، ففي هذه المدة فشا خبر الإسلام في القبائل البعيدة، والديار النائية، لأن موقع مكة الجغرافي ومكانتها الدينية جعلتها متصلة بالعالم حولها في رحلة الشتاء والصيف، وفي موسم الحج، وفي الأسواق الموسمية حولها، كسوق عكاظ وَمَجَنَّة وذي المجاز. فإذا وقع في مكة حدث أو فشا خبر سارَ في كل قطر، وتحدثت به كل قبيلة،

(١) «وحي القلم» للرافعي (٢/ ١٦ ـ ١٧) باختصار وتصرف يسير.

(٢) «دروس من السيرة» سميرة زايد (١٥٤).

فكان إشراق الدعوة في مكة إشراقًا على الجزيرة كلها، ولِذا جاء إلى النبي ﷺ في مكة رجالات من قبائل نائية بلغهم خبره، فجاؤوا وأسلموا في مكة، كأبي ذر من قبيلة غفار، وعمرو بن عبَسَة من قبيلة أسلم، وهما شمال مكة، والطفيل بن عمرو من قبيلة دوس، وهي جنوب مكة، فكانت دعاية الإسلام تنتشر في الآفاق، ولِذا ما إن هاجر ﷺ إلى المدينة واستقر بها حتى صار النُّزَّاع من القبائل يهاجرون إليه، وكانت صُفَّةُ المسجد النبوي هي مأوى هؤلاء المهاجرين الذين عرفوا بأهل الصفة، والذين عرفوا الإسلام من سماعهم لدويّه في مكة، وما كان يبلغهم من خبره، ولِذا فإن المرحلة المدنية بناءٌ على أساس المرحلة المكية، وتتمة لبدايتها، فهي النهاية لتلك البداية، ولكل من مكة والمدينة دورها وأثرها وعطاؤها في مرحلتها، وكل ذلك من حكمة الله ولطف تدبيره، فجعلها في مكة في مرحلة التأسيس والنشأة، وفي المدينة في مرحلة الانطلاق والدولة و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

لقد كانت أيام الدعوة في مكة تشريعًا من الله في حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بَغَى على حقه الباطلُ، وطغى على دينه الكفر، ليعرف كيف يصبر ويصابر، وكيف يجاهد ويهاجر، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز.

وكان يوم العودة إلى مكة وما بعده تشريعًا من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها، واتحدت كلمتها، واستحصدت قواها، لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت، وتحتقر الصغائر إذا كبرت، ثم لا تحارب إلا في الله، ولا تسالم إلا في الحق[1].

(١) «وحي الرسالة» أحمد حسن الزيات (عدد ٨٥٢).

عشرين: عندما وفد المهاجرون على المدينة وآخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار لم يصبحوا عبئًا على المدينة، ولا طاقة معطلة تعيش حالة بطالة، بل شمروا مع إخوانهم الأنصار، وقاسموهم العمل في نخيلهم حتى تتضاعف الإنتاجية، ويتحقق الاكتفاء الذاتي للمدينة، ولتتسع الأوقات فيتكثف الحضور عند رسول الله ﷺ.

وهذا ما صوّره لنا عمر بن الخطاب حين قال: «كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في عوالي المدينة، وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ، ينزلُ يومًا وأنزلُ يومًا، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[1]، فصاروا بذلك وكأنهم جميعًا حضور في مجلس رسول الله ﷺ.

كما أن المهاجرين أطلقوا مهاراتهم التجارية منذ قدومهم المدينة، ومما يوضح ذلك خبر عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الأنصاري، فإن النبي ﷺ آخى بينهما، فقال سعد بن الربيع بسخاء كريم: «هذا مالي أقسم لك نصف مالي»، فقال له عبد الرحمن: «بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق»، فذهب إلى سوق بني قينقاع وهو سوق اليهود في المدينة فباع واشترى، ثم عاد ومعه أقط وسمن، وما زال يصفق في السوق، حتى صار من أثرياء المدينة، ومثله عثمان بن عفّان، وعمر بن الخطّاب وغيرهم.

وبذلك استطاعوا منافسة اليهود وكسر احتكارهم التجاري، وعندما أُخرج اليهود لم تقع أزمة اقتصادية ولا كساد تجاري، مع أنهم أصحاب الأموال والثروات

(١) «صحيح البخاري» (٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

حتى إن حيي بن أخطب حين أخرج من ديار بني النضير خرج ومعه جلد بقر مملوء ذهبـًا، ومع ذلك استطاع تجّار المهاجرين تفعيل السوق وإدارة النشاط الاقتصادي، فكان وجود المهاجرين في المدينة طاقة فاعلة، وقوة منتجة.

وذلك من آثار تفعيل النبي ﷺ للطاقات وحسن توجيهها، وحثهم على كسب الرزق والتعفف، والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله.

وفي ذلك درس بليغ لكل مسلم أن يكون في مجتمعه إضافة وليس عبئـًا، وطاقة منتجة وليس بطالة مستهلكة، و«**المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»(١).

حادي وعشرين: كان أول يوم في المدينة هو أول يوم في تاريخ دولة الإسلام، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ولذا جعله الصحابة فارقة تاريخ الإسلام، منه يبتدأ، وبه يؤرَّخ.

كانت الهجرة إلى المدينة بداية فاتحة لانطلاقة أخرى في مسير الرسالة المحمدية، انتقلت من رسالة ودعوة إلى دعوة ودولة، وتمددت في أفق رحيب، وفضاء آمن، فأقيمت الشعائر، وطبقت الشرائع، ونُفّذت الأحكام، وتحقق النموذج الأول والأكمل للإسلام، واقعا مشهوداً معاشـًا، يمكن تأسيه والاقتداء به، ولِذا صار ضياؤه مُشِعّـًا جاذبـًا تهفو إليه العيون، وتقصده النفوس المتلهفة إلى الهداية وطمأنينة الحق.

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

كان يوم الهجرة الذي جعله عُمَر الحكيم العظيم تاريخًا للمسلمين يحسبون منه أيامهم، ويؤرخون به أحداثهم، خاتمة وفاتحة: كان خاتمة لثلاثة عشر عامًا من المحن الشداد والآلام القواتل تظاهرت على الإيمان والصبر، وكان فاتحة للنصر المؤزر والفتح المبين، أعلن المسلمون فيه كلمة الله، وبلغوا رسالة الحق، وحملوا أمانة العلم، وأرشدوا الضال فاهتدى، وحموا الذليل فعز، وعلَّموا الجاهل فتعلم، ومَكَّنوا في أرضهم الفسيحة ودنياهم العريضة لعناصر الجمال والخير فقويت في كل نفس، وازدهرت في كل جنس، وانبعثت من كل مذهب، وانتشرت في كل أفق، وصارت المدينة وحدها بعد يوم الهجرة مجالا لسياسة الرسول ﷺ يضم شتات الجماعة، ويوثق عقدة الأمة، ويجمع أهبة الحرب، فألف بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتَّب في يثرب جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة[1].

ثانيَ وعشرين: كان للمرأة حضورها المميز ومشاركتها الفاعلة في ملحمة الهجرة منذ بداياتها الأولى، فقد حضرت بيعة العقبة الثانية على الهجرة والنصرة امرأتان من كرائم نساء الأنصار، هما نسيبة بنت كعب، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي، وبايعتا على ما بايع عليه الرجال.

وفي خروج النبي ﷺ وأبي بكر من مكة كان لعائشة وأختها أسماء دورهما في الإعداد العاجل للسفر، فجهزتاهما أسرع الجهاز بما يحتاجه المسافر من زاد ومتاع، وشقّت أسماء نطاقها لتربط به سفرة الطعام وقربة الماء لمسيرهما ذلك[2].

(١) «وحي الرسالة» أحمد حسن الزيات (عدد ٨٥٢).

(٢) يُنظر: «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٥).

وفي تشبّث أم سلمة بزوجها وإصرارها على اللّحاق به حين منعها أهلها من المسير معه، حتى سمحوا لها بعد عام من البكاء والإلحاح والمصابرة، ثم ارتحلت لتسير وحدها في هذا الطريق المخوف، والسفر البعيد، وقد كانت عازمة على اقتحام هذا السفر وحدها، لولا أن سخر الله لها عثمان بن طلحة، فصحبها حتى أوصلها المدينة شهامةً منه ونُبْلاً[1].

وهكذا كان بقية نساء المهاجرين، فقد احتملن ما احتمل أزواجهن، وصبرن معهم على ما صبروا عليه، وكنّ عوناً لأزواجهن ومدداً لهم[2].

وقد كان نساء المهاجرين يشاركن في ذلك بوعي واحتساب ومعرفة بالدَّور الذي يقمن به، وليس مجرد اتباع ومسايرة لأزواجهن.

وممّا يدلّ على ذلك موقف أسماء بنت عميس حين عادت مع زوجها جعفر من الحبشة، فقال لها عمر: «سبقناكم بالهجرة والجهاد مع رسول الله ﷺ»، فغضبت، وقالت: «لا والله، بل كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم ويعلّم جاهلكم، وكنّا في دار البغضاء البُعَداء، وكنّا نؤذي ونخاف، وما ذاك إلا في ذات الله ورسوله. والله لأذكرن ذلك لرسول الله ﷺ»، ثم أخبرت رسول الله ﷺ بما قال لها عمر، فقال لها رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ هِجْرَتَانِ**»[3].

(١) «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٦٩).

(٢) من مقال: «الهجرة دروس وفوائد» د. محمد بن إبراهيم الحمد.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٩٩٠).

إنّ هذا يكشف أن المرأة كانت شريكـًا حقيقيّـًا فاعلاً في مشروع الدعوة النبوية، وأنها كانت متشبعة بقناعاتها، واعية بدورها، ولِذا كان عطاؤها فاعلاً ومؤثّراً ومتميّزاً، وما كان ذلك ليتمّ لو كانت تعيش حالة التهميش والإقصاء والاستتباع[1].

لقد كان الرجال والنساء جميعـًا شركاء عمل في مشروع الإسلام الرسالي، وكلّ يؤدي واجبه ودوره المنوط به، فهم الأجدر بموعود الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثالثَ وعشرين: الهجرة هي نقلة عن الوطن وعن الظروف المحيطة، والعوائق المانعة، واستقبال لحياة جديدة، وفرص جديدة، واستكشاف لمساحات واسعة للعمل، وآفاق بعيدة للانطلاق، وهكذا كان حال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وأصحابه المهاجرين إلى المدينة.

لقد قضى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ثلاث عشرة سنة في مكة، وكان حصيلة مَن آمن معه من الرجال أقل من مئة رجل خلال هذه المدة المديدة، وذهب سفيره إلى المدينة فأسلم على يديه خلال سنة واحدة المئات، حتى كان في استقبال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ حين دخل المدينة أزيد من خمسمئة رجل، وما أن استقر صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في المدينة حتى تسارع الانتشار وتضاعفت الأعداد، وبعد ثمان سنين يقود عشرة آلاف لفتح مكة،

(١) «قصص نبوية» للمؤلف (١٤١).

وبعدها بسنتين يقود أكثر من مئة ألف في حجة الوداع، وما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان الناس قد دخلوا في دين الله أفواجًا، وأضاءت فجاج الجزيرة كلها بالإسلام، وذلك أن الدعوة في المدينة كانت تتحرك في فضاء واسع، وأفق مفتوح، وأما في مكة فكانت محاصرة وفي مواجهة واصطدام، وكان هذا من أسباب الهجرة وحِكَمها.

وهذا يبين أهمية اختيار البيئة الأقرب للتجاوب مع الدعوة، وإعطائها الأولوية والأهمية، واستثمار الطاقة في مكان جديد، وعدم الوقوع في أسر المكان وتقديسه، والانتقال من حالة الدعوة المحاصرة إلى طور الرسالة المبادرة.

وبذلك تكون الهجرة فتحًا ونقلة إيجابية إذا أحسن اكتشاف الفرص الجديدة واستغلالها وحسن التعامل معها، فيتضاعف العطاء، ويعظم الأثر، ويتحقق من الإنجاز ما لم يكن سيتحقق في أماكن محدودة التأثير ومغلقة المسارات.

وفي سيَر العلماء مشاهد من هجرتهم من بلدانهم إلى حيث يعظم أثرهم، وينتشر علمهم، ويتحقق نفعهم.

دخل سفيان الثوري عسقلان وهي مدينة صغيرة، فمكث ثلاثًا لم يسأله أحد، فخرج منها وهو يقول: «هَذَا بَلَدٌ يَمُوتُ فِيهِ الْعِلْمُ»[1].

وخرج العز بن عبد السلام من دمشق فتلقاه أمير الكرك وطلب منه النزول في بلدته، فقال له: «إن بلدتك تصغر عن علمي»، وتوجه إلى مصر، وهناك صار سلطان العلماء[2].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٦٠٩).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٠).

وجاء آل تيمية من حرّان إلى دمشق، وفيها تفجرت قنبلة علمية اسمها أحمد ابن تيمية، فكان إحدى عجائب الدهر، وفلتات الزمن، تحقيقاً وتصنيفاً ورسوخاً علميّاً وجهاداً ودعوة، وإحياءاً تجاوز عمره وعصره وقطره.

فهل كان ابن تيمية سيجد مَن يستثير عبقريته ويتفاعل مع علمه ويمتد بأثره لو بقي هو وأهله هناك في حرّان؟!.

وفي زماننا هذا هاجر علماء من بلدات صغيرة نائية إلى مصر، فتفاعلت مع علمهم، وأظهرتهم وأشهرتهم، وكانت البيئة الفاعلة المتفاعلة، فهل سيكون لرشيد رضا أثره لو بقي هناك في القلمون ولم يهاجر إلى مصر؟! وهل سيكون للأمين الشنقيطي أثره لو بقي في صحراء شنقيط ولم يهاجر إلى السعودية؟! ومثلهم وغيرهم كثير.

وهكذا تكون البراعة في تحويل الهجرة إلى اكتشاف للفرص، وتفاعل معها، وتأثير في مجالها.

رابع وعشرين: بقيت هجرة مصعب ودعوته ملهمة للأجيال، تتجدد في تاريخ الدعوة والدعاة، ورأينا أثر مَن هاجروا بدعوتهم فأحيا الله بهم أمة هالكة، وأبقى لهم أثراً خالداً، وعاشوا أعمارا مع أعمارهم، وبقيت دعوتهم بعد وفاتهم عملا يتتابع لهم أجره وبِرّه وذخره في أجيال مَن أحياهم الله بدعوتهم.

وتلك مسيرة متطاولة في تاريخ الإسلام وسير المسلمين، وإن انتشار الإسلام في أصقاع شاسعة من الأرض في شرق آسيا وغرب إفريقيا في بلاد لم تصلها جيوش الفاتحين، ولكنها فُتحت بزحوف الدعاة المهاجرين الذين وصلوا

إلى هذه البلاد واستنبتوا دعوتهم في أرضها، فتعمّقت جذورها في الأرض، وبسقت فروعها في السماء، وتداولتها أعمار الأجيال من بعدهم جيلا إثر جيل.

وقد أدركنا في عصرنا الحاضر نماذج ممن باعوا لله أعمارهم، وهاجروا بدعوتهم إلى بلاد نائية، وأقطار بعيدة، فكانوا رسل الهداية، وبريد الدعوة، حيثما وصلوا وحلّوا.

هاجر الشيخ عبد الله القرعاوي من بلدته عنيزة في وسط السعودية إلى الطرف الجنوبي الغربي من تهامة، في منطقة جيزان، وهي أرض صعبة المُناخ، شديدة الحرارة، لم تصل إليها في وقته أي وسيلة من وسائل الحياة الحديثة، فعاش فيها، وكابد ما يكابد أهلها من شدة الحياة ولأوائها، وكان حال هذه المنطقة كحال المناطق البعيدة، قد أطبق عليها الجهل، واستهلك أهلَها شظفُ العيش، وكدح الحياة، فأحيا الله به البلد علمـًا ودعوةً، وكوّن جيلاً من أبناء المنطقة اهتمّ بدعوتهم وتعليمهم، وبقيت هجرته ودعوته علامةً فارقة في تاريخ المنطقة، وتخرّج أجيال من طلبته يفوقه بعضهم في الرسوخ العلمي، كالشيخ حافظ حكمي وغيره، ولكنهم كلهم، وما علموا ومن علَّموا، وما ألَّفوا، حسنة من حسناته، وأثرٌ من آثاره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وخرج الدكتور الطبيب عبد الرحمن السميط وزوجته نورية البداح من رفاهية الحياة في الخليج، وطفرة الثروة في الكويت ليهاجروا إلى إفريقيا، يتنقّلون بين أدغالها وغاباتها في وقت كانت إفريقيا مغارة الأخطار ومستنقع الأوبئة، مع انقطاع وسائل الاتصالات وصعوبة المواصلات. واختار الانقطاع عن ترف الحياة واستقبل مكابدة الشدائد بين القبائل الإفريقية تعليمـًا ودعوةً وإغاثةً،

وأقام عملاً مؤسسيـًا زاحم بإمكاناته المحدودة جيوش المنصِّرين الذين كانت تدعمهم الدول الغربية بإمكاناتها الهائلة، فبارك الله في جهده وبقي أثره وتتابع عمله، ولا تزال مؤسسة «العون المباشر» التي أسسها مشعل هداية وتعليم، ويداً ممدودة إعانةً وإغاثةً، وبقي له في كل بلد إفريقي أثرٌ باقٍ وثمرات متتابعة.

وفي عام (١٤٠٢هـ) زار وفد من كوريا الجنوبية دولة الكويت، وقابل وزير الأوقاف، واقترحوا عليه إرسال داعية إلى كوريا حيث إن هذه الدولة لا يوجد فيها ذلك الوقت دعوة ولا دعاة، فعرض وزير الأوقاف ذلك على جمع من العلماء العاملين في الكويت، وكان منهم الشيخ د. زاهد الحق الحلبيّ الذي بادر إلى قبول الطلب، وأبدى استعداده لذلك، من غير أن يكون لديه علم عن كوريا هذه، فقد كانت حينها دولة فقيرة بعيدة، فوافق على العرض وأبدى استعداده لذلك، دون أن يعلم هل كوريا في آسيا أم في إفريقيا، ولكنه رآها فرصة دعوية اقتحمها، وغنيمة ظفر بها، فاستقال من عمله يوم كان الحصول على عمل في الكويت غنيمة من غنائم العمر، وفرصة من فرص الثراء، واقتحم الغربة، وسافر إلى كوريا، وهناك تعلم اللغة الكورية، وانطلق في الدعوة، وألّف الكتب المعرِّفة بالإسلام، وأنشأ جامع أبي بكر، ثم جامع عمر بن الخطاب، وأوقف بقية عمره على الدعوة في هذه البلاد النائية، حتى تكونت على يديه جالية مسلمة في بلد لم يكن فيها مسلمون ولا إسلام، وبقي معتكفـًا على دعوته في كوريا خمسا وأربعين سنة، حتى وفاته فيها عام (١٤٤٧هـ).

وأخبار المهاجرين الدعاة كثيرة في أقطار متعددة من أوروبا وأمريكا شمالاً وجنوبـًا، ولكلٍّ منهم قصصه الشائقة العاجبة، ولا تحتمل هذه الرسالة ذكرها وتتبعها،

وإنما أشرت إلى هذه النماذج استنهاضاً للإخوة الذين نأت بهم أحوالهم ليعيشوا بعيداً عن بلادهم في بلاد أخرى هاجروا إليها ليقضوا فيها بقية أعمارهم، أن يتجاوزوا معاناة الغربة، ويحوّلوا الهجرة إلى فرصة، ويتلقوها وكأنها هدية وُهِبت لهم، ويتساءل كلٌّ منهم: ما هو الدور الذي يؤديه؟ وما هو الأثر الذي سيبقى بعده؟ فيتحرك في مجال محيطه وبالقدر الذي يتناسب مع طاقته وإمكاناته، والنجاح يلد النجاح، والفرصة الصغيرة تتبعها الفرصة الكبيرة، ويبارك الله العمل ويزكيه إذا صلحت النية وأُخلص القصد.

وفي هولندا زار أحد الدعاة من المغرب جالية من تونس قبل عشرين سنة، فاحتفلوا به واجتمعوا إليه، وكانوا قرابة الثلاثمائة في تلك البلدة، فكان مما قال لهم: «تخيلوا هذه المدينة يكتب تاريخها بعد مئة سنة، ماذا سيُقال عنها وعنكم؟

يمكن أن يقال: جاء مسلمون فسكنوا هذه البلدة، وبنوا فيها مسجداً ومدرسة، وعرّفوا الناس بالإسلام، فعرفهم الناس وأحبوا دينهم وأخلاقهم، وأسلم بسببهم أهل البلد ومن حولهم، وغيّروا النظرة السلبية عن الإسلام والمسلمين عند غيرهم، ولا يزال نورهم يشع وأثرهم يتسع في الجيل الثاني والثالث، فتتابع بعدهم مَن يحمل رسالتهم ودعوتهم».

وربما يقال: «حضر إلى هذه المدينة مجموعة من العمال من ذلك البلد في شمال إفريقيا، وكانوا يعملون في النهار ويجتمعون في المقاهي في الليل يتابعون مباريات كرة القدم وينتقدون حكومتهم، ويشتمون رئيسهم، ثم يعودون إلى هذه الدورة من الغد حتى شاخوا وتقاعدوا، فعاد بعضهم إلى بلادهم ومات بقيتهم في دور رعاية المسنين».

فاختاروا اليوم واقعكم وأثركم، وما يبقى منكم بعدكم، واكتبوا أنتم ما سيُقال عنكم.

والحق أن هذا التساؤل مما ينبغي أن يتعاهد به كل مهاجر نفسه، سواء كانت هجرته مؤقتة أو دائمة: ما هي الفرص التي استغلها؟ وما هي الأعمال التي يقوم بها؟ وما هو الأثر الذي يُحدِثه؟ وما الذي سيبقى منه بعده؟ وأن تكون الهجرة والغربة محفزاً له ليعمل ويدعو ويؤثر، وأن يعتبر نفسه سفيراً لرسول الله ﷺ في البلد الذي هاجر إليه كما كان مصعب بن عمير سفيراً لرسول الله ﷺ في المدينة حين هاجر إليها، وأنه من ورثة رسالة الرسول ﷺ، وممن بُعث بما بُعث به محمد ﷺ، فقد قال ﷺ لأصحابه: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[1]، فجعلهم مبعوثين بما بُعث به، ودعاة لما دعا إليه.

خامس وعشرين: هاجر مصعب بن عمير برسالة محمد ﷺ، فتحولت المدينة إلى بيئة تتنفس الإسلام.

هاجر مصعب بن عمير في السنة الثانية عشرة من البعثة، ولم تُفرض كثير من شرائع الإسلام، لكنه نقل إليهم حرارة الإيمان بكل ما معه من الشعور بالمسؤولية عن هذا الدين، وكان سلاحه في ذلك هو ما معه من القرآن، ولهذا فإن أكثر الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير صاروا دعاة مثله ومعه، وساءهم أن يكون الرسول ﷺ مضيقًا عليه في مكة وهم آمنون في المدينة، فاتفقوا على أن يعرضوا على الرسول ﷺ الهجرة إليهم، وليشترط لربه ولنفسه ما شاء.

(١) «مسند أحمد» (٧٢٥٤).

إني أتعجب كيف استطاع مصعب خلال سنة واحدة أن ينقل مشاعر الأنصار إلى تحمل المسؤولية عن الإسلام والدعوة إليه وحمايته، فجاء مصعب بن عمير مع الأنصار، وتمت البيعة، وهاجر النبي ﷺ، وشهد مصعب بن عمير بدراً، وشهد أحداً وفيها استشهد، وأغمض عينه، ولم يشهد فتح مكة، ولم يشهد عام الوفود يوم كان الناس يدخلون في دين الله أفواجـًا، ولم يشهد حجة الوداع، والنبي ﷺ معه أكثر من مئة ألف حاج. لم يشهد كل هذه الإنجازات، وإنما غادر الحياة في أشد الساعات شدة، شهيداً في معركة أحد، لكن هل نظن أنَّ مصعب بن عمير كان غائبـًا عن فتح مكة، أو غائبـًا عن حجة الوداع؟.

إن كثيراً من الذين شاركوا في فتح مكة هم من ثمار دعوته المباشرة أو غير المباشرة، وكذلك أكثر الذين شهدوا حجة الوداع كانوا ثمار دعوته أيضـًا، وكل ما يعملونه مكتوب في عمله.

وقد بقيت حياة مصعب بن عمير حيّة ماثلة في وجدان الصحابة بعد وفاته يتذكرونها ويستلهمونها، فهذا عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتي بطعامه وكان صائمـًا، فلما نظر إليه، قال: «قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فكُفِّن في بردة إذا غُطِّي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي بها رجلاه بدا رأسه، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت لنا»، ثم جعل يبكي، وترك طعامه[1].

(١) «صحيح البخاري» (١٢٧٤).

وتذكّر خبّاب بن الأرت حال مصعب وهو يذكر هجرتهم مع رسول الله ﷺ، فقال: «هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ الله، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى الله، فَمِنَّا مَنْ مضى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفَّن فيه إلا نمرة، فكنّا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فَأَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ، شَيْئًا مِنْ إِذْخِر، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا»[1].

ولِذا فإن علينا أن نذكّر أنفسنا وكل إخواننا المهاجرين اليوم فوق كل أرض وتحت كل سماء أننا عندما نحضر إلى البلاد النائية نحضر ونحن نتوقع أن يُجري الله على أيدينا ثماراً لا تشهدها عيوننا، ولكن يتواصل لنا أجرها وبرها، وإن الذين يهتدون على أيديكم ستُكتب حسناتهم في سجل حسناتكم، وهكذا أبناؤهم ومَن يهتدي على أيديهم، وسنُغادر هذه الحياة ونحن نحتسب أن يستمر لنا أجر من انتفع بدعوتنا.

جاء سائل لأحد العلماء، وقال: أريد أن أحج عن النبي ﷺ، فقال له الشيخ: حج عن نفسك، وحجّتك عن نفسك يصل مثل أجرها إلى النبي ﷺ؛ فكل ما نعمله الآن من خير، يذهب للنبي ﷺ مثل أجرنا، لأنه هو الذي دلَّنا عليه وكذلك كل من علَّمنا وكل مَن نُعلِّمه، وكلّ مَن دعانا وكلّ مَن دعوناه، فلكل داعٍ مثل أجر مَن اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

(١) «صحيح البخاري» (١٢٧٦).

سادس وعشرين: كان في هجرة النبي ﷺ وأصحابه تأسيس وبيان بأن هذا الدين عقيدة وشريعة، تحكم الفرد، وتُهيمن على المجتمع وتدير الدولة، وأنه كما للفرد دوره في التزام الدين وإشاعة الخير ومدافعة الباطل، فللمجتمع دور أكبر في تطبيق الإسلام وتمكينه وحمايته.

ولذا، فلا بد أن يُبنى المجتمع المسلم ويُقام، وللدولة المسلمة دورها وأدواتها في نشر الإيمان، والحفاظ على القيم والمكتسبات، وحماية حمى الإسلام والمسلمين، ولذا كان لا بد أن تتأسس دولة الإسلام وتنهض، فكانت الهجرة انتقالاً بالإسلام إلى طور جديد، وتحويله إلى واقع معاش على الأرض، وقد ترتب على تدبير الله أن قامت دولة الإسلام، وظهر في الوجود أفضل مدينة كانت للفضيلة، ونشأت بالفضيلة[1].

سابع وعشرين: يظهر التدرج في أحداث الهجرة وخاصة في العرض على الأنصار، ففي لقائهم الأول بالنبي ﷺ عرض عليهم الإسلام، ودعاهم إليه، وقرأ عليهم القرآن وبيّنه لهم، فقبلوا وآمنوا، فحمّلهم مسؤولية دعوة غيرهم، وبلاغ ما عرفوه وآمنوا به، فلما جاؤوا في العام التالي بايعهم على توحيد الله وعبادته ومكارم الأخلاق والفضائل، فلما جاؤوا في العام الذي بعده بايعهم بيعة العقبة الثانية على الإيواء والحماية والنُّصرة، ونلاحظ في هذه اللقاءات الثلاثة المتتابعة سموَّ القيم، وعلوَّ سقف الأهداف، مع واقعية التنفيذ، والتدرج في الخطوات.

(١) «السيرة النبوية» محمد أبو زهرة.

ثامن وعشرين: الهجرة حالة متجددة، وليست مرحلة ماضية، وإذا كانت الهجرة من مكة قد انقطعت بعد الفتح فإنها باقية في بلاد وأحوال وأشخاص كلما وُجدت دواعيها، قال ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وإذا كانت لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة أسبابها وأحوالها التي تحفّ بها فلا يلزم أن تكرر هذه الأسباب والأحوال نفسُها في كل هجرة.

فأسباب الهجرة متنوعة، فقد تكون فراراً بالدين من الفتن، وقد تكون فراراً من ظلم، وقد تكون لطلب علم أو تعليم، أو لأن مجال الإفادة والنفع حيث يهاجر أعظم منه حيث يقيم، وليس المهم سبب الهجرة هنا، ولكن حال المهاجر بعد هجرته، فإن جعل إقامة الدين والدعوة همّه الذي يهتم به، ووكده الذي يجتهد فيه نفع وانتفع، وصار سبب حياة وإحياء، وقاوم طوفان الذوبان في تلك المجتمعات الغارقة في الشهوات، التائهة في الظلمات، وإن انهمك في المشاغل واستسلم للعوائق، وانقاد للمعاذير، مضت حياته في دوامة التوافه، ووصل إلى حافة العمر حطاماً لم يُحدث أثراً، ولم يحقق إنجازاً، وأفلتت منه فرص الحياة الثمينة فلم يستفد منها، وتفارط عمره مغبونا في أعظم النِّعَم، «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(٢).

وكم أجرى الله من الخير في بلاد غير إسلامية هاجر إليها مسلمون لطلب العلم أو طلب الرزق، فكوّنوا تجمّعاً إسلامياً، وأقيمت بهم مساجد يُذكر فيها اسم الله،

(١) «سنن أبي داود» (٢٤٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤١٢).

وصار للمسلمين فيها على قلّتهم تجمّعهم وهوِيّتهم، وصار وجودهم معزِّفاً بالإسلام، وداعياً إليه، وصارت هجرتهم خيراً لهم من إقامتهم في بلادهم التي كانوا فيها، قال الماوردي: «إذا قَدَرَ على إظهار الدّين في بَلَد من بلاد الكفر فقد صارت البَلَد به دارَ إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرِّحلة عنها لمَا يُتَرَجَّى من دخول غيره في الإسلام»[1].

تاسع وعشرين: مع أن النبي ﷺ أُخبر وهو في مكة بمهاجَره، وأُرِيَ الأرض التي سيهاجر إليها، فرأى حرارها ونخيلها، وبشّر بها أصحابَه، وأخبرهم بصفاتها، فقال: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أَرْضًا ذَاتَ نَخْلٍ**»[2]، إلّا أن هذه المعلومة التي عند النبي ﷺ وأصحابه لم تجعلهم يعيشون حالة انتظار، ولكن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم استمروا في الدعوة وتبليغ الدين والبحث عن فرص للدَّعوة في مكّة وخارجها، وعندما استعلنت قريش في العداوة لم يستسلم لهذه المواجهة، بل استمرَّ يبحث عن مساغات أخرى يُبلِّغ فيها دينه ورسالته، إنهم لم يستنيموا بانتظار هذا الموعود وإنما عملوا لتحقيقه، وبدؤوا بالبحث عمَّن يؤويهم وينصرهم، ومَن يهاجرون عنده، ثمّ قارن هذا التصرف النبوي بعقدة الانتظار التي يعيشها بعض المسلمين، فتجد مشاريعهم مؤجلة ينتظرون خروج المهدي، أو قدوم الرايات السود، أو تغيُّراً يأتي بزعيم ملهم وقائد أوحد، بينما درس الهجرة يقول لنا: الانتظار عقدة وليس عقيدة، وينبغي ألا يتحول الانتظار إلى أغلال وقيود تمنعنا من العمل والإنجاز، فالنبي ﷺ مع أنه موعود بالهجرة

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٣٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٣).

إلا أنه عمل هو وأصحابه وبحثوا عن مساغات أخرى، فعلينا ألا نعيش عقدة الانتظار وإنما علينا أن نعيش جِدّ السعي كما جدّ النبي ﷺ وسعى[1].

ثلاثين: من ملامح الهجرة أنّ الله عَزَّوَجَلَّ اختار لنبيه ﷺ، أن يختلط في المدينة بأقوام وديانات لم تكن موجودة في مكة، لتكون رسالته متفاعلة مع ثقافات وديانات عالمية غير تلك التي كانت في مكة، ولتكون رسالته النظرية والعملية قد نُفِّذت بفعله ﷺ وقوله ومواقفه، لا بمجرد توجيهات وأقوال تُروى في سنته.

ففي مكة لم يكن هناك إلا المشركون، وكانت ديانتهم وثنية ساذجة، ليس لها كتاب دين، ولا رجال علم، أمّا المدينة فكان فيها اليهود، وكان فيها النصارى[2]، وكلهم أهل كتاب، وفيها المشركون والمنافقون، في حين لم يكن في مكة إلا شريحة واحدة، فالهجرة إلى المدينة أسست لأضخم مواجهة معرفية مُستقبلية مع المنافس الأكبر وهم أهل الكتاب، وأرست الحجاج الديني والمعرفي والمجتمعي والأخلاقي معهم من خلال الهجرة إلى المدينة، ووقوع هذا الاحتكاك، وتنزل آيات القرآن تجادل حُجَجهم، وتنقض دعاواهم، وكأنما تكشف ستر الغيب عن أن المواجهة العنيفة والطويلة ستكون مع اليهود والنصارى أكثر من غيرهم.

كما كان في المدينة تنوعٌ في إدارة الحياة يختلف عما في مكة، فهي مجتمع متعدد النشاطات زراعيًا، وصناعيًا، وتجاريًا، في حين كان مجتمع مكة

(١) يُنظر مقال: (الانتظار عُقدة أم عقيدة؟) من كتاب: «الخطاب الدعوي» للشيخ سلمان بن فهد العودة (٤٨٥).

(٢) يُنظر: «الوجود النصراني في المدينة» د. حمد محمد بن صراي.

مقتصرا على النشاط التجاري وحده، ولهذا اختار الله لإدارة الحياة في المدينة أن تكون بهذا المكوّن الشمولي المتنوع، دينًا وثقافة ونشاط حياة، وفي ذلك تأهيل للمسلمين الذين ستكون مجتمعاتهم على هذا التنوع، وليس على حال البدايات في مكة، وأنهم سيواجهون مجتمعات متعددة الأديان والثقافات، وسيتحملون مسؤولية دعوتهم والتعامل معهم، وهذا ما كوّن لدى الصحابة لياقة عالية لاستيعاب هذا التنوع في الأمم بعد الفتوح، ولم يقفوا أمامها في حال انبهار أو عجز، وإنما استوعبوها، وأثروا فيها، وقادوها ببراعة إلى الحق الذي جاؤوا به، فصارت منهم ومعهم.

واحد وثلاثين: لما عرض أبو بكر راحلته على النبي ﷺ قبلها بالثمن، فاشتراها منه بثمانمئة درهم. لقد قبل النبي ﷺ كثيراً من إكرام أبي بكر له حتى قال ﷺ: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**»[1]. ولكنه هنا اشترط أخذ الثمن، لأنه أحب أن تكون هجرته من خالص ماله، حرصًا على كمال أجره[2].

كما أن هذا يدل على أن النبي ﷺ كان غنيًّا ميسوراً، فإنه لم يشترط أخذها بالثمن من أبي بكر -وكان ثمانمئة درهم- إلا عن ظَهْر غِنَى، وهذا يبين حاله في مكة، وأنه كان فيها غنيًّا عزيزاً، ولم يكن محتاجًا فقيراً.

ثاني وثلاثين: عندما رأى الأنصار بعد بيعة العقبة تخوف النبي ﷺ عليهم من كفار قريش، قالوا له: «أفلا نميل عليهم غداً بأسيافنا؟». فقال ﷺ: «**لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**»[3].

(١) «سنن ابن ماجه» (٩٤)، و«جامع الترمذي» (٣٦٦١).

(٢) يُنظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: «مسند أحمد» (١٥٧٩٨)، و«مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨).

وكان النبي ﷺ بذلك يربي هؤلاء الشباب على ضبط المشاعر والتحكم في الانفعالات، ويفقههم أن القتال ليس حالات انفعال طارئ، ولا ردّة فعل مستفزة، ولكنه شعيرة مرتبطة بأمر الله، تحكمها شرائط وضوابط، ويصدر فيه عن أمر الله وحكمه، لا عن انفعالات النفس ومراداتها.

وعلى عدم استعجال الحسم حتى تنضح ظروف، وتتوافر دواعيه، وتتوافق مع سنن الله في كونه.

وكذلك على الموازنة بين قيمة التضحية بالنفس، وقيمة حفظ النفس وعدم إلقائها في الهَلَكة.

ولم يقابل النبي ﷺ حماسة هؤلاء الشباب بقمعه أو تسفيهه، ولكن بترشيده وادخاره لوقته المستحق له.

ولذلك عندما فُرض الجهاد ووقع القتال، كانوا هؤلاء الشباب المجاهدين الصادقين، وتفارطوا شهداء بين يديه ﷺ ومن بعده، إعلاءً لكلمة الله ونصرةً لدينه.

ثالث وثلاثين: وفي المدينة كان النبي ﷺ يُشعر المهاجرين معه بأهمية الهجرة ومكانتها، وأنها ميلاد جديد، ونقلة كبرى في الحياة.

جاءه عمرو بن العاص مهاجراً فلمّا بسط يده ليبايعه قال: «أشترط». قال ﷺ: «**تشْتَرِطُ بِمَاذا؟**». قال: «أن يُغفر لي». قال ﷺ: «**يَا عَمْرُو، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يهدم مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ؟!**»[1]. فبشّره بميلاد جديد، وافتتح في حياتَه صفحة بيضاء نقية.

(١) «مسند أحمد» (١٧٧٧٧).

وكم يستثير العجب أنَّ عمرَو بن العاص الذي سافر إلى النجاشي ليستردَّ المهاجرين إلى الحبشة يأتي بعد ذلك مهاجراً إلى المدينة.

وكان النبي ﷺ يتعاهده بالرعاية والاهتمام، حتى ظَنّ أنه أحب الصحابة إليه، فتجرّأ وسأل رسول الله ﷺ قائلاً: «يا رسول الله، مَنْ أحب الناس إليك؟». قال ﷺ: «**عَائِشَةُ**». قال: فمن الرجال؟. قال: «**أَبُوهَا**»[1]. وما اقتحم عمرو بهذا السؤال إلا وهو يطمع ألا يبدأ النبي ﷺ في الجواب بأحد قبلَه لِما رأى من حفاوة النبي ﷺ به.

ومن رعايته ﷺ للمهاجرين تعاهدهم بالزيارة في بيوتهم، وخُلطته برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وكان بهذه الزيارات يؤنس غربتهم، ويجدد التعاهد بهم، ومن ذلك زيارته لعامر بن ربيعة، وهو من أهل السابقة والهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فيجيء النبي ﷺ إليه يزوره في بيته فيتلقاه هو وزوجته ليلى بنت أبي حَثْمَةَ وطفله عبد الله، فيجلس النبي ﷺ ويجلسون حوله يقبسون من نوره، ويصيبون من بركته.

ولكن الطفل كعادة الأطفال كثير الحركة، فأرادت الأم أن تُجلسه معهم حتى يُصيب من بركة النبي ﷺ فنادته، وقالت: «يا عبد الله، هاه هاه تعالَ أُعطِيك». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيه؟**». قالت: «أعطيه تمرا». فقال النبي ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطيه كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ**»[2].

وهكذا كانت زيارة النبي ﷺ لهم إكراماً ومؤانسة، وتعليما وتربية، وإن تعجب فاعجب أن الذي روى لنا هذا الخبر ليس عامراً ولا زوجتَه، ولكنْ طفله الذي وعى الحدث وحفظ الحديث كأنما نُقش في قلبه.

(١) «سنن الترمذي» (٣٨٩٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٥٧٠٢).

وهذه المشاهد تبيّن أهمية أن يكون بين المهاجرين تواصل وتعاون وتآزر، وأن هذا الاجتماع والتواصل يعزّز القوة الذاتية ويحفظهم من التفرق والشتات، ويحقق لهم تداعي الجسد الواحد.

وتزداد الحاجة إلى هذا التواصل إذا كان المهاجرون هم المهاجرين والأنصار جميعـًا، فالسابق يقوم بدور الأنصار، ويستقبل القادمين كمهاجرين.

ولقد سمعت بالأعاجيب عن الدكتور عبد الرحمن السميط عندما كان طالبـًا في كندا، كيف كان بيته مأوى للقادمين الجدد، وكان هو الملاذ لهم، وقام هو وزوجته أم صهيب بدور الأنصار لكل قادم من المهاجرين، وكان ذلك في فترة السبعينات الميلادية، يوم كان المغترب غريبـًا بحاجة إلى يد تمسك به، ومجموعة طيبة تحتويه، وإلا ضاع في متاهة الغربة، وغرق في بحر المُغرِيات، فهل نتذكر هذا المعنى من مدرسة الهجرة فيأخذ المهاجرون بأيدي بعضهم بعضـًا، ويتعاهدون مَن ضعف أو قَصَّر فيأخذون بيده، حتى لا يغرق أو يضيع؟ والله خيرٌ حافظـًا وهو أرحم الراحمين.

رابع وثلاثين: هنا أنتظر منك أخي ورفيقي القارئ أن تضيف ما ظهر لك من معاني الهجرة ودروسها التي خطرت لك ولم أذكرها، وفُتح عليك بها ولم أدركها، فلا زال في دلالات هذا الحدث الضخم معانٍ ودروس تلوح لكل ناظر من زاوية نظره، ولعلك تذاكرني بها في رسالة تواصل، فالعلم رحمٌ بين أهله.

سائلاً الله أن يفتح عليك فتوح العارفين، ويسلك بك سبيل العلماء الراسخين، والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب الطُّرَيري أبا الخيل

إمام الأنبياء

هـذا إمـام الأنـبـيـاء، مـحـمّـدٌ[1] ... والقدسُ خَيْرُ سُرَىً وخيرٌ مَشْهَدا

عـرج الـسـمـاءَ، كـأنَّـهُ مـن أهلِها ... لا شـاكـيًـا تـعَـبًـا ولا مُـتَـرَدِّدَا

كـيـف الـذي مـلأ الـسـمـاءَ بـنـورهِ ... أمسى طـريـدًا في الـبـلادِ مُـشَـرَّدَا

طـردوهُ، وامتهنوا أذى أصحابِهِ ... كِـبْـرًا، وجـالـوا بالفيافيَ رُصّـدا

فـرعـتـهُ عـيـنُ اللهِ، وهـوَ بظلِّها ... يـرعـى مُـؤَيَّـدَةً، ويـنـقـلُ سـؤددا

وإلـى ثـنـيّـاتِ الـوداعِ، تساءلوا: ... شمسٌ على القصواءِ؟ أم بدرٌ بَدَا؟

يا أهل يثربَ؛ لم يكن شمسًا ولا ... بـدرًا، ولـكـن كـانَ ذاكَ مُـحَـمَّـدا

فـدعـوهُ، يَـدْلُـلُـهُ الإلـهُ بِـمُـلْـكِـهِ ... لِيُقِيمَ من قلب السباسِبِ مَسْجِدَا

هاهم بعفوكَ -يا بن مكّةَ- رُكَّعًا ... للهِ - بين الأخشبينِ - وسُـجَّـدا

حتّى إذا طَمِعوا بـهِ، قـال اذهبوا ... طُـلَـقـاء، أعـظـمَ مـا يُـرامُ وأحـمَـدا

أعفوتَ عنهم، أم سخوتَ مكارمًا ... ولأنـتَ أكـرمـهـم وأسـخـاهـم يدا

يـاسـيـدي، والـنـور قـبـلـة أمـة ... تاهت فأشعل من جبينك موقدا

يا بن العواتكِ، قد فَـدَوْكَ بنو أبي ... بـنـفـوسِـهـم، وأنـا فِـداكَ مُـجَـدِّدا

والمسلمون، - مُبَجَّلًا ومُقَدَّرًا - ... كُـلٌّ فِـدَاكَ، إذا قَـبِـلْـتَ بِـهِـمْ فِـدَا

فـي كـلِّ مُـشـتـاقٍ إلـيـكَ حبيبنا ... جـذعٌ يحنُّ، ويملأ الدُّنيا صَدى

(١) من قصيدة للأستاذ الشاعر موفق السُّلمي.

شكر وتقدير

وفي الختام، أشكر الله عَزَّوَجَلَّ على معونته وتيسيره.

وأشكر الإخوة الكرام الذين استفدت من جهودهم السابقة، ومشورتهم وتعاونهم، وأخص:

أ. د. عبد العزيز العمري.

د. محمد زبير جامي.

السيد سمير برقة.

أ. عبد الحافظ القريقري.

م. عمرو درويش.

الشيخ أحمد بن غانم الأسدي.

أ. محمود بشناق.

سائلا الله أن يشكر لهم، ويضاعف الأجر ويحسن الجزاء.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
في أثر الأنبياء ٨
بشائر الهجرة ١٠
الهجرة في الغيب البعيد ١٤
تهيئة المدينة للهجرة ١٨
في انتظار الهجرة ٢٠
دوافع الهجرة ٢٢
البحث عن وطن النصرة ٢٩
لقاء الأنصار الأول ٣٤
البيعة الأولى ٣٧
بيعة الهجرة والنُّصرة ٤١
نفير المهاجرين ٥١
الإعداد للهجرة ٥٨
أيام الغار ٦٣
في طريق الهجرة ٧٢

بقايا الطريق ٨٠
أيام قباء ٨٩
مسجد قباء ٩٥
من قباء إلى المدينة ٩٨
في بيت أبي أيوب ١٠٥
المهاجرون في المدينة ١١٠
عشر سنين ١١٤
هجرات أخرى ١١٨
دروس الهجرة وعبرها ١٢٢
إمام الأنبياء ١٧١
شكر وتقدير ١٧٢

كتب للمؤلف

اليوم النبوي

قصص نبوية

السيرة اليسيرة

الحياة النبوية

أماكن نبوية

إلى أخي وأختي

الآثار النبوية

سماء الذاكرة

كأنك معه

حديث الغدير

سنام الإسلام

تعرف على القرآن

الحياة بعد الحياة

القبر المقدس

التواصل مع المؤلف

Website

Email

Facebook

Youtube

Telegram

TikTok

WhatsApp
(+90) 5467723779

X

بداية التاريخ

قصة الهجرة النبوية ودلالاتها

لم تكن الهجرة النبوية مجرد انتقال مكاني من مكة إلى المدينة، بل هي سؤال مفتوح على التاريخ والحضارة:

ولم تكن الهجرة حركة جسد عبر الصحراء، بل هي تحوّل أمة من الاستضعاف إلى التمكين، ومن الدعوة إلى الدولَة.

لقد كانت انبلاج الفجر بعد ليل مظلم، وانطلاقة الحرية بعد قيد مؤلم، ووثبة قوة بعد استضعاف طويل، وكانت الحدث الذي طوى صفحة الظلم، ومدّ بساط العدل، وأخرج البشرية من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وما زالت الهجرة تطرح على القارئ والباحث سؤالها الخالد:

- كيف يتحول الاضطهاد إلى طاقة بناء؟
- وكيف تصبح محنة الغربة منطلقا لحضارة؟
- يا لله كيف أخرج من مكة ليعود إليها فيفتتحها؟
- وأقصي عن الكعبة ليعود إليها فيطهرها؟
- وأخرج من الوطن ليدخل التاريخ؟

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ – ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية – الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net